
بين
جثسيماني
وجلجثة
جيمس ستوكر
تعريب : فارس فهمي

بين
جثسيمانى وجلجثة

تأملات
فى محاكمة وموت الرب يسوع المسيح

جيمس ستوكر

تعريب الأخ/ فارس فهمى

اسم الكتاب : بين جثسيمانى وجلجثة
المعرب : الأخ / فارس فهمى
المطبعة : طبع بمطبعة كنيسة الإخوة بأسيوط.
يطلب من : مكتبة كنيسة الإخوة ـ ٣ شارع أنجه هانم
شبرا ـ مصر وباقى المكتبات الفرعية.
رقم الإيداع : ٩٠٥٨ / ٩٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N
977 - 5060 - 40 - 0

تقديم

قرات هذا الكتاب فوجدته يلقى ضوءاً على كثير من حوادث الساعات الأخيرة من حياة الرب يسوع ابتداء من اللحظة التى أسلم فيها. وعلى هذا الضوء رايت فى زوايا ظلمات تلك الفترة نبضات مقدسة تعمل فى قلوب خاشعة. ونفثات مسمومة تنبعث من قلوب حاقدة. ومن خلال تلك الأحداث المفجعة وظلماتها المتراكمة لمحت سمواً إلهياً وكمالاً إنسانياً يشع من حمل الله الكريم.

رايته فى سمو إلهى يخشع القلب فى حضرته. ورايته فى كمال إنسانى يعجب القلب به. ولايلبث المتأمل ان يصوغ خشوعه وإعجابه عبادة له وسجوداً.

وإن كنا كبشر نعجز كل العجز عن إدراك آلام المسيح التى تعين عليه أن يتحملها فى جسده وفى نفسه من يد الناس ومن يد الله. كما نعجز كل العجز عن سرد الوقائع التى تؤلف معاً مجرى هذه الآلام سرداً تفصيلياً. إلا اننى احسب الصورة المرسومة فى هذا الكتاب على قصورها صادقة لا كلفة فيها ولا مغالاة.

فإلى شركاء الإيمان (غل ٦) وشركاء الآلام (٢كو ١:٧) وشركاء الميراث (اف ٣:٦) أقدم هذا الكتاب.

المعرب

الفصل الأول



«حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه»
«فى تلك الساعة قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى»
«حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا»
(مت ٢٦:٥٠، ٥٥، ٥٦).

(اقرأ مر ١٤:٤٣ ـ ٥٠ و لو ٢٢:٤٧ ـ ٥٣ و يو ١٨:١ ـ ١١)

###

فى نصف الليل وعلى قيد خطوات من مدخل بستان جثسيمانى تبدأ حوادث الليلة الأخيرة فى حياة ربنا يسوع.

على ذلك الطرف البعيد لوادى قدرون شرقى أورشليم يجثم جبل الزيتون وخضرة بساتينه تغطى سفحه المنبسط، وجثسيمانى واحد من تلك البساتين التى تملكها الأهالى.

لقد فرغ يسوع من جهاده فى الصلاة بعد أن أفرغ على الأرض من العرق ما يشبه قطرات كبيرة من الدم، إذ كان يصلى «بجهاد» و «لجاجة» فى «حزن» و «اكتئاب» لكى تعبر عنه تلك الكأس التى لاح شبحها أمام عينيه. نهض يسوع من الصلاة «وإذا يهوذا أحد من الاثنى عشر قد جاء

ومعه جمع كثير بسيوف وعصى» (مت ٢٦:٤٧). لقد جاءوا من باب المدينة الشرقى، وعلى ضوء القمر كان ممكناً أن تُرى أشباحهم وهى تزحف على مدخل البستان.

كان فى مقدمتهم البوليس اللاوى «جند الهيكل» وخدام الكهنة، وليس بمستبعد أن يكون بين هذا الجمع رجال من أعضاء السنهدريم ليروا بأنفسهم كيف تنفذ الخطة بنجاح.

هذه الجماعة الخليط من شتى الطبقات جاءت مسلحة بسيوف وعصى، وجاءوا يحملون مصابيح ومشاعل زيادة فى الحيطة.

كان رائدهم فى هذه الحملة يهوذا الاسخريوطى، وسنقول الشئ الكثير عن يهوذا فيما بعد. غير أن لنا هنا بعض الملاحظات المختصرة على هذا الخائن ومسلكه الشائن.

يقول المثل «الفعل الطيب فى اليوم الطيب» فإذا كان الفعل منكوداً فهو أشد نكراً إن كان فى يوم عيد. وها نحن نستقبل أقدس أعياد اليهود - عيد الفصح - وكانت تلك الليلة بين ليالى أسبوع الفصح أعظمهن قدراً، ويهوذا دنّس الفصح لما اقتحم أقداس سيده، فإن جثسيمانى كان مكان خلوة محببة عند الرب يسوع، ولطالما صحبه يهوذا إلى هناك وهو يعلم الغرض من تلك الخلوات. ولكن يهوذا رجل هانت عليه المقدسات فداسها غير هيّاب، ولم يرعَ الحرمات فخفّت الصلاة فى موازينه، غير أنه على هامة فجوره وضع أنكر المنكرات عندما اختار علامة خاصة بها يسلّم سيده لأعدائه، ولعله تقدم الجماعة كأنه ليس منها أو كأنه مُنذر مُخلص يريد أن يسبق فينبه سيده إلى خطر محيق، ورمى بنفسه على عنق السيد، «وقبّله». وبذلك ألبس يهوذا

النفاق والرياء ثوب الطهارة والنقاء. إنها فعلة تستنكر مادام فى العالم محبة طاهرة بلا رياء. إنها جريمة ضد القلب البشرى والعواطف النبيلة، ولكن أحداً من الناس لن يشعر بها كما شعر بها الرب يسوع المسيح. ففى تلك الليلة وفى اليوم التالى قد أُفسد وجهه بطرق شتى، فعليه جرت قطرات عرق كأنها من دم، وعليه لُطم بأيدى العبيد، وعليه بُصق من عبيد العبيد، ومزقه الشوك أيضاً، ولكن ما نفذت فعلة خسيسة إلى قلبه مثل ما نفذت تلك القبلة الغادرة. وبروح النبوة قالها داود فى مزموره «لأنه ليس عدوٌ يعيّرنى فأحتمل. ليس مبغضى تعظّم علىّ فأختبئ منه، بل أنت إنسان عديلى إلفى وصديقى، الذى معه كانت تحلو لنا العشرة، إلى بيت الله كنا نذهب فى الجمهور» (مز ١٢:٥٥ ـ ١٤). وبقلب جريح من وخز الخيانة قال الرب «يا يهوذا. أبقبلة تسلم ابن الإنسان؟»

كانت القبلة علامة التتلمذ، ففى الشرق كان التلاميذ يقبلّون مُعلميهم، وعلى هذا المنوال سادت تلك العادة بين تلاميذ المسيح. وتكرار القبلة كان معناه تكرار تجديد الولاء. إنها علامة القبول والرضا والترحاب.

نفض الرب نفسه من بين يدى يهوذا ليواجه القوم سائلاً إياهم «مَن تطلبون؟» وعند هذا السؤال أخذتهم الدهشة فتراجعوا، وإذ تدافع البعض منهم وراء البعض سقطوا على وجوههم. وفى التاريخ حصلت حوادث مماثلة مع مشاهير الناس والقواد، وليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بحصول شئ غير عادى فى هيئته أوقع فى قلوبهم الرعب، ولو أن بعض الرعب الذى استولى عليهم قد يكون مرده إلى خوفهم من أن يقضى عليهم بمعجزة من معجزاته. وواضح أن يهوذا كان يتوقع شيئاً من ذلك لما قال لهم «أمسكوه

وأمضوا به بحرص» والواقع أنهم هم الذين أُخذوا بدلاً من أن يأخذوه، فإنهم كانوا يقترفون خيانة وعلى رأسهم قائد خائن. كانوا يتوقعون مفاجأته ويقبضون عليه قبل أن يفيق من المفاجأة فإذا به يفاجئهم متقدماً نحوهم بلا خوف، فى جسارة لها رهبة، وتدافعوا وسقطوا أمامه فقال لهم ثانية «من تطلبون؟» ليريهم أنهم ليسوا هم الذين يأخذونه وإنما هو الذى يُسلّم نفسه. لقد كان سيد الموقف وحده. ثم وجّه كلامه إليهم «كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى؟ كل يوم كنت أجلس معكم أعلّم فى الهيكل ولم تمسكونى» لقد كان يُعلّم جهاراً فى أكبر مكان عام وفى وضح النهار ولم يخشَ أعداءه على كثرتهم. أما هم بعددهم وسيوفهم وعصيهم فخرجوا عليه فى نصف الليل حتى يصنعوا جريمتهم فى الظلام، وهو قال لهم «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» فساعة نصف الليل هى ساعتهم لأنهم أبناء ليل حلفاء سلطان الظلمة.

هكذا تكلم «أسد سبط يهوذا» وهكذا سيتكلم فى اليوم الذى فيه ستوضع أعداؤه موطئاً لقدميه «قبّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق لأنه عن قليل يتقد غضبه. طوبى لجميع المتكلين عليه» (مز ٢:١٢).

ولا حاجة بنا إلى التذكير بأن انتصار الرب خارج أبواب البستان له علاقة بانتصاره داخل البستان. لقد تقوى وتسامت عظمته بالصلاة والسهر. وما أجلى هذه الصورة إذا قُورنت بصورة أولئك الذين لم يقدروا أن يسهروا معه ساعة واحدة. لقد فاجأتهم الحوادث وأيقظتهم من نوم ثقيل. وحينما ألقيت على يسوع الأيادى قال واحد من تلاميذه «أنضرب بالسيف؟» وبدون أن ينتظر الجواب ضرب ضربة رعناء. ذلك التلميذ نصف المستيقظ بدلاً من

أن يضرب العنق ضرب فقط الأذن. وكان ممكناً أن يدفع بطرس ثمن فعلته غالياً لولا أن الرب يسوع تداخل فوراً وقال «دعوا إلى هذا» أى «أفسحوا لى» ولمس أذن عبد رئيس الكهنة فبرئ فى الحال وأنقذ بطرس من مأزق ضيق وقال «رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» ثم يقول له بلغة غاية فى السمو «أتظن إنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة؟ فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون ...؟» وما هذه الجماعة المشكلة من مختلف الأصناف أمام اثنى عشر جيشاً من الملائكة؟ ولكن طلبة مثل هذه من الرب يسوع كانت لا تتفق مع الكتب ولا هى تتفق مع غرضه ولا مع قصد الآب. الكأس التى أعطانى الآب ألا أشربها».

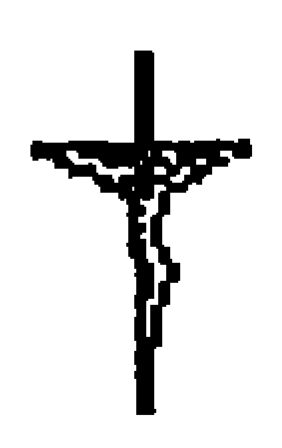
مسكين بطرس، بفطرته الطبيعية تصرف فى تلك المناسبة. واربما كان فى عمله هذا بعض النبل ولكن عمله كان فى غير موضعه. ولو كان بطرس قد أطاع ما أُمر به داخل البستان لما فعل خارج البستان ما لم يُؤمر به، ولكان موقفه أفضل جداً حينما يستل سيف الكلمة ويقطع به أذناً تستمرئ التهكمات على الرب وتخونه بسبب هجوم جارية فى بيت رئيس الكهنة.

مسكين ذلك القائد المتحمس عندما لايكون حماسه مزوداً بفكر المسيح وروحه.

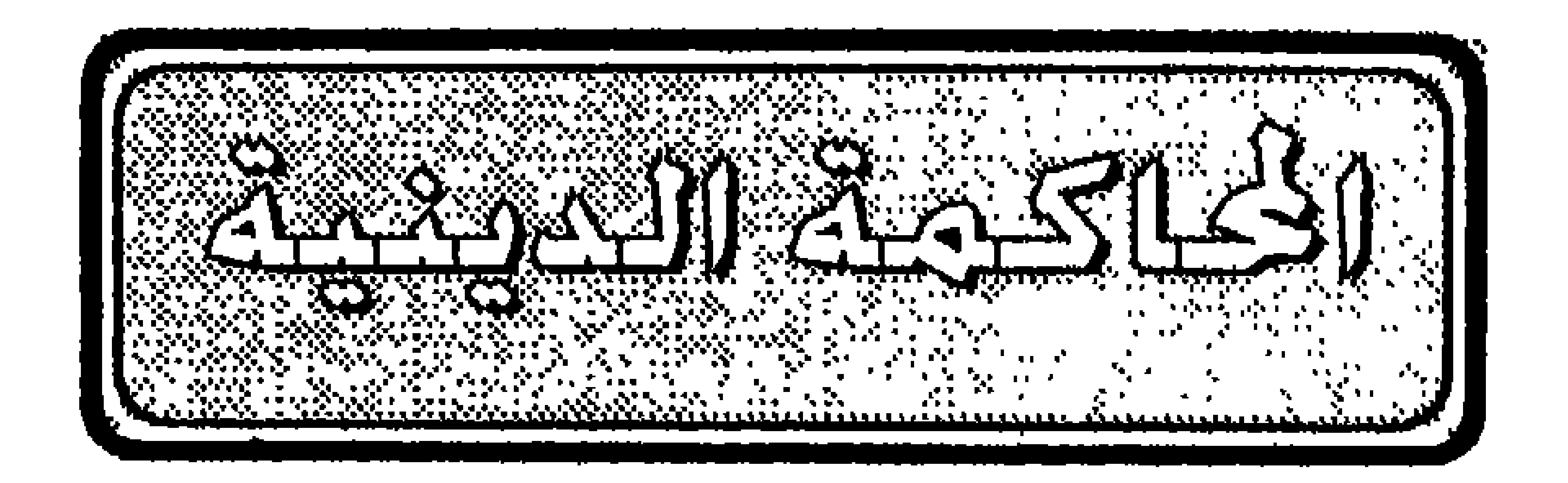
ولعل بطرس تذكر كيف أنه منذ سويعات قليلة وبحماس كبير قال للرب «وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً ... ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك» فدفعته الذكرى لأن يفعل شيئاً. والتلاميذ جميعهم قالوا كذلك أيضاً فهل تذكروا ذلك الآن؟ لسنا نظن، فإن الخطر كان يلوح. وغريزة الابقاء على

الحياة ملكت عليهم حواسهم فتراجعوا جميعاً وهربوا خوفاً.

لكن الرب يسوع، كراع صالح، واجه المهاجمين ووقف بينهم وبين تلاميذه قائلاً «إن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون» ويوحنا الحبيب يعلّق على ذلك في إنجيله بالقول «ليتم القول الذى قاله إن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحداً» وهكذا أوجد الرب لهم مخرجاً من المأزق الضيق فمضوا طلقاء، الجميع تركوه وهربوا وكان لابد أن يذهب يسوع المسيح وحده بلا شريك وبلا رفيق. وهكذا «قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به».



الفصل الثانى



تمهيد

سار الموكب صعوداً إلى المدينة على منحدرات قدرون، ويسوع المسيح في الوسط، وهنا يجوز أن نفسح مكاناً للملاحظة العابرة التى أوردها مرقس فى إنجيله عن الشاب اللابس إزاراً على عريه فهو يقول «وتبعه شاب لابساً إزاراً على عريه فأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب منهم عرياناً» ويقول البعض أن ذلك الشاب هو مرقس ويعتقدون أن عبارة كهذه تشبه توقيع الرسام فى زاوية معتمة من زوايا لوحته [1] والواقع ليس عندنا ما نقوله عن هذه الملاحظة، غير أن معنى العبارة يُستنتج منه مقدار الخطر الذى كان يكمن لكل من يُظهر أى عطف أو أية مجاملة للرب يسوع فى تلك اللحظة.

تحركت تلك الجماعة تشق الشوارع الصامتة المقفرة ويسوع المسيح مُساق إلى دار رئيس الكهنة حيث كان مقرراً أن يحاكم. كان لابد أن تجرى المحاكمة على درجتين : مرة بصفة دينية ومرة أمام السلطة المدنية. الأولى

---

(١) نظن أن الرأى القائل أن هذا الشاب هو مرقس مجرد تخمين لأن مرقس كاتب الإنجيل هو يوحنا الملقب مرقس، وأمه تدعى مريم وكان بيتها فى أورشليم مفتوحاً للتلاميذ وموئلاً للكنيسة الأولى (أع ١٢:٢٥) أما هذا الشاب فظاهر أنه فقير معدم لايستر جسده سوى إزار. (المعرب).

أمام قيافا رئيس الكهنة والثانية أمام بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى. أما السبب فى ذلك فهو أن اليهودية فى ذلك الوقت كانت جزءً من إقليم سورية الخاضع للسيادة الرومانية، وكانت اليهودية تحكم بواسطة ضابط رومانى اتخذ مقره فى «قيصرية» الميناء البحرى الجديد الذى يبعد عن أورشليم خمسين ميلاً. وكان لهذا الحاكم قصر فى أورشليم أيضاً يقضى فيه أوقات الزيارة بين حين وآخر.

لم يكن من عادة روما أن تجرد الولايات التى تقع تحت نفوذها من كل مظاهر السلطان، بل كانت تتملق تلك الشعوب بأن تترك لهم نوعاً شكلياً من الحكم الذاتى وتضع بين أيدى الرؤساء الوطنيين أوسع مدى من السلطة بحيث لايتعارض هذا مع سيادتها الامبراطورية. وكانت سياستها بصفة خاصة أن تتهادن فى المسائل الدينية، من أجل ذلك ظلت المحكمة التقليدية الدينية القديمة لليهود، والتى كانت تسمى «المجمع» أو السنهدريم، تمارس اختصاصها فى نظر القضايا الدينية، وكان لها سلطة الحكم وتوقيع العقاب على المخالفين. غير أنه إذا كانت الجريمة من الجرائم الخطيرة فإن القضية برمتها كان ينبغى أن تنظر مرة أخرى أمام الحاكم الرومانى الذى له أن يعدل فى الحكم أو يتولى تنفيذ العقوبة إذا هو أيد حكم السنهدريم.

ولقد صدر أمر القبض على يسوع المسيح من الرؤساء الدينيين وحكموا عليه بالموت، ولكن لم يكن فى استطاعتهم أن ينفذوا الحكم، وكان يتعين عليهم أن يذهبوا به إلى بيلاطس الذى تصادف وجوده فى أورشليم فى ذلك الوقت. ونظر بيلاطس الدعوى من جديد وطبعاً كان المتهم فى قبضة حراسه وكان شيوخ الشعب يمثلون الاتهام.

رأينا أن هذه القضية كان يجب أن تنظر على درجتين، وسنرى أن في كلتا الدرجتين كانت هناك ثلاث مراحل منفصلة. ففى المحاكمة الدينية وقف الرب يسوع أولاً أمام حنان، ثم أمام قيافا والسنهدريم أثناء الليل، ثم أمام نفس الهيئة الأخيرة قبيل الصباح.

وفى المحاكمة الثانية وقف يسوع أولاً أمام بيلاطس الذى رفض أن يؤيد حكم السنهدريم، وأراد بعد ذلك أن يتخلص من القضية فأرسل المتهم إلى هيرودس الجليلى الذى تصادف أيضاً وجوده هو الآخر فى أورشليم، ولكن عادت القضية مرة أخرى إلى بيلاطس الذى رغماً عن شعوره وضد ضميره أيد حكم الموت وهو موقن ببراءة المحكوم عليه.

يخبرنا الرسول يوحنا أن الرب يسوع أُخذ أولاً إلى حنان، وحنان كان فى ذلك الوقت شيخاً فى السبعين من عمره، ومنذ عشرين سنة خلت كان رئيساً للكهنة، وقد تعاقب على الكهنوت من بعده خمسة من أولاده، ولم تكن وظيفة الكهنوت فى ذلك الوقت لمدى الحياة بل كانت لمدة محدودة وكان رئيس الكهنة الرسمى فى تلك الأيام هو قيافا زوج ابنة حنان.

ولحنان رأيه الذى يُعتد به فى المسائل الدينية، وكانت الرئاسة الدينية الفعلية معقودة له، أما قيافا فهو الرئيس الرسمى وكان يمارس وظيفته شكلياً فقط.

وحنان من الاسكندرية أصلاً وجاء إلى أورشليم بناء على دعوة من هيرودس الكبير. وكان طموحاً هو وأفراد عائلته، ولما كثر عددهم تكونت منهم طبقة حاكمة وأدخلوا أنوفهم فى كل شئ، وكانوا على مذهب الصدوقيين، وكانوا قساة القلوب صُلب الرقاب، منتفخين وعالميين، وكانوا

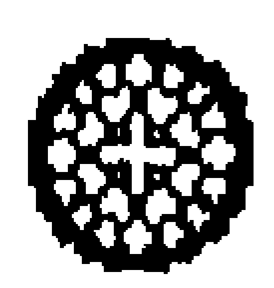
مكروهين من أغلب الشعب، ولكن بقدر ما كان الشعب يكرههم كان يخشاهم. كانوا طامعين بالربح القبيح، ويقال إن حركة التجارة داخل أبواب الهيكل، تلك الحركة التى دانها المسيح بكل صرامة قبيل حوادث الجلجثة بأيام معدودات، كانت بموافقتهم ولأجل منفعتهم الشخصية ليكوّنوا ثروة عن طريقها، وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن تصرف الرب يسوع عندما قلب موائد الصيارف وطرد الباعة من الهيكل، قد أشعل الحقد فى قلوبهم وأثارهم عليه للانتقام منه (يو ٢:١٤ ـ ٢٦).

كان حنان طرفاً فى المؤامرة المعقودة مع يهوذا الاسخريوطى، من أجل ذلك ظل تلك الليلة مستيقظاً ليرى يسوع المسيح مقبوضاً عليه، ولعله كان يتشوق إلى تلك اللحظة، حتى أن الذين قبضوا على يسوع وأتوا به إلى حنان أولاً. لكن لم يكن حنان من الوجهة القانونية له حق مساءلته واستجوابه قبل انعقاد السنهدريم. لذلك انتشر خدامه ورسله فى شوارع المدينة النائمة ليستدعوا أعضاء المشيخة جميعاً فى تلك الساعة المتأخرة من الليل لأن القضية لاتحتمل الانتظار حتى الصباح، ولأن أحداً لايعلم ماذا تكون الحال إذا ما استيقظت المدينة وسمعت أن المعلم المحبوب قد امتدت إليه أيدى أعدائه. فكان لابد أن تجرى المحاكمة وتنتهى قبل الصباح. وبموجب حكم السنهدريم يُسلّم يسوع المسيح إلى قبضة السلطة الرومانية قبل أن يدرى أحد من الشعب عن أمره شيئاً، وبذلك يأمن الشيوخ والكهنة جانب الشعب. وتحت جنح الليل اجتمع السنهدريم فى بيت قيافا وأُخذ يسوع إلى هناك.

على أن كل هذا لم يكن حسب الناموس، لأن الناموس الحرفى لم يصرح

بجواز انعقاد تلك المحكمة ليلاً، ومن أجل ذلك كان لابد أن تعقد جلسة أخرى مع خيوط الصباح الأولى لاستيفاء الشكل القانونى فقط، لأن كل شئ كان قد تم واتفق عليه فى الليل.

وكان الاتهام الموجه إلى الرب يسوع أنه يجمع من حوله تلاميذ لغاية غير معروفة وأنه يعلمهم تعليماً سرياً ربما تبلور فى النهاية إلى مشروع ثورة.



المحاكمة الدينية

بدأت المحاكمة فى ديوان فسيح. وكلنا نعرف دواوين البيوت الشرقية، وهو عبارة عن حجرة فسيحة تشرف على ساحة أوسع منها ولا يفصلها سوى بضعة أعمدة حتى أن الذين فى الساحة الخارجية يمكنهم رؤية كل ما يجـرى فى ذلك الديوان الذى يكون عـادة على شكل نصف دائرة. وفى مواجهة الداخل يجلس أعضاء السنهدريم الكثيرون متكئين على أرائك وفى وسطهم قيافا رئيس المجمع يجلس على ما يشبه العرش، وأمام قيافا، إلى اليسار، يقف المتهم وحراسه، وإلى اليمين يقف شهود الاثبات.

وكان المعتاد أن تبدأ المحاكمة بتوجيه الاتهام فى عبارات صريحة محددة وتترك الفرصة للمتهم للرد عليها، ثم يسأل شهود الاثبات لتدعيم الاتهام. ولكن بدلاً من أن تبدأ المحاكمة طبيعية نرى رئيس الكهنة يسأل يسوع «عن تلاميذه وعن تعليمه» (يو ١٨). وبهذا يريد رئيس الكهنة أن يلمح إلى أن

يسوع هذا يجمع حوله تلاميذ لغرض خفي وأنه يعلمهم تعليماً سرياً ينتهي إلى دعوة ثورية. أما يسوع فقد كان يحز في نفسه أن يُقبض عليه هكذا تحت جنح الليل وأن تُحشد عليه كل هذه القوة كما لو كان رئيساً لعصابة ثورية، فأجاب رئيس الكهنة بكل فطنة قائلاً «أنا كلّمت العالم علانية. أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء لم أتكلم بشيء. لماذا تسألني أنا. أسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا».

نعم لماذا قبضوا عليه إن كانوا إلى الآن لم يعرفوا ماذافعل وماذا علّم؟ لقد حاولوا أن يجعلوا منه إرهابياً هدّاماً ولكنهم بقبضهم عليه في الظلام ومحاكمتهم إياه في نصف الليل برهنوا على أنهم أبناء ظلمة.

كانت إجابة الرب يسوع القوية الحقّة غريبة على ذلك المكان الذي لم يعرف من قبل سوى توسلات المتهمين واسترحامات المذنبين وعبارات التملّق من أفواه المدافعين عنهم. لذلك إذا بواحد من الخدام كان واقفاً، وربما رأى الحمرة تصبغ وجه رئيس الكهنة، رفع يده وبقبضتها لطم يسوع المسيح على فمه قائلاً «أهكذا تجاوب رئيس الكهنة ...؟» يا له من أجير !! وكم كان من الأفضل له ولو أن يده يبست قبل أن يضرب ضربته. لقد وقع حادث مماثل لبولس عندما وقف أمام رئيس الكهنة ولم يستطع أن يكتم حنقه واحتقاره له، أما يسوع فلم تتسلط عليه موجة كهذه من الضيق والتبرم.

عند تلك اللحظة تنبه رئيس الكهنة وتراجع إلى حيث ينبغي أن يبدأ المحاكمة، فاستدعى الشهود، ولكن التهمة غير محددة والوقت ضيق وليست هناك فرصة لحبك الاتهام وتلقين الشهود ولابد من تزوير الدليل. و «متى»

يقول صراحة «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه» (مت ٢٦) إذن «لكي يقتلوه» هذا ما صمموا عليه وما أرادوه. وكل ما كانوا يحاولونه هو أن يلفقوا علّة قانونية، ولكن الظروف لم تسعفهم. والشهود الذين جئ بهم لم تتفق شهادتهم فجئ بغيرهم وبغيرهم فإذا الاتهام باطل والدعوى خاسرة. ولكن تقدم أخيراً شاهدا زور اتفقت شهادتهما على أنهما سمعا منه أنه قال «إني أقدر أن أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه». إن العبارة التي قالها الرب يسوع أبعد بكثير في منطوقها ومدلولها من كلام هذين الشاهدين، ومع ذلك فأية جريمة حتى في هذا القول؟ إن كان يسوع في النصف الأول من عبارته صرّح بأنه يقدر أن ينقض الهيكل ففي نصفها الثاني أكد أنه يبنيه ثانية، فأي خطأ يمسك عليه بسبب عبارة كهذه لاتفيد شيئاً. فقام رئيس الكهنة وتقدم إلى يسوع وقال له «أما تجيب بشيء؟ماذا يشهد به هذان عليك؟».

تتابع الشهود، وكل منهم نقض أقوال الآخرين، وظل يسوع المسيح ساكتاً يوزع النظرات على من حوله. وأخيراً يسأله رئيس الكهنة أن يتكلم، فسكت أيضاً وكان صمته أبلغ من كل كلام، لأن عدم كلامه جعل قضاته يشعرون بموقفهم المزري، حتى ضمائرهم القاسية بدأت تقلق وهم يرون ذلك الوجه ينظر شذراً إلى إجراءات محاكمتهم في جلال صامت.

فشل رئيس الكهنة عند افتتاح الجلسة، وها هو يفشل الآن أيضاً. ولكنه لجأ أخيراً إلى طريقة ملتوية فرجع إلى كرسيه وفي حركة تمثيلية قال ليسوع «أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله» وبهذا وضعه أمام القسم حتى يتكلم، لأن العادة عند اليهود أن ينطق القاضي بالقسم

وليس المستجوب.

كانت تلك اللحظة من أعظم اللحظات فى حياة المسيح إذ كان بلاشك يعلم أن السؤال لم يوجه إليه إلا لتنسج منه تهمة ضده والجواب عليه يعنى الحكم بالموت، ولكن ذاك الذى مرة أسكت الشعب الذى خلع عليه لقب «مسيًا» عندما أرادوا أن يجعلوه ملكاً نراه الآن يتمسك بهذا اللقب عندما يكون التمسك به سبباً وعلة لقضاء الموت. فقال فى ثبات وإصرار «أنت قلت» وبكل جراءة قال لهم «وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء» ويا له من معنى !! فإنهم إلى لحظة يجلسون كقضاة يحكمون عليه، ولكنه فى يوم عتيد سيكون هو القاضى. إنهم اليوم سيقررون مصير حياته الأرضية، ولكنه هو الذى سوف يقرر مصيرهم الأبدى.

ولطالما سمعنا من البعض قولهم أن المسيحيين ينسبون إلى المسيح ما لم ينسبه هو إلى نفسه، فإن المسيح لم يقل قط عن نفسه أنه أكثر من إنسان، ولكن المسيحيين هم الذين جعلوا منه إلهاً. لكن هذه العبارة التى نطق بها يسوع المسيح من أجل القسم الذى ألقى على مسامعه لها وقع ولها مكان فى كل قلب مخلّص، فالجالس عن يمين القوة والذى يأتى على سحاب السماء هل يمكن أن يكون غير ذاك الذى هو ديان سرائر الناس والفاحص قلوبهم حتى أعماقها والوازن أعمالهم والكاشف نواياهم؟ وبالتبعية الذى بيده أمورهم وإليه مصائرهم.

ياله من اعتراف عظيم يغير المشهد أمام عيوننا، فإن مشاعرنا إزاء هذا الإعلان تسمو إلى علو شاهق، فلسنا نرى أولئك الرجال الصغار وإجراءاتهم

المبتذلة، بل نرى «ابن الإنسان» يشهد عن نفسه فى مسامع الكون كله، وماذا يعنينا بعد ذلك ما يقوله قضاة اليهود عنه؟ إن ذلك الاعتراف العظيم يتردد متموجاً عبر الدهور وتتردد معه من قلب الخليقة «آمين ثم آمين».

وأخيراً وصل رئيس الكهنة إلى غايته، وكما هو متوقع من كل رئيس كهنة عندما يسمع تجديفاً، مزق ثيابه والتفت إلى زملائه وقال «ما حاجتنا بعد إلى شهود ها قد سمعتم تجديفه» وجميعهم اتفقوا على أنه مذنب مستوجب الموت.

إن بعض قراء الكتاب وهم يتابعون هذه المناظر يتحيرون إذ يلمحون فى أولئك القضاة ضميراً يتلمس دليل الاتهام ليستريح عليه، وهذا أمر طبيعى، ألم يكن من واجبهم إن جاءهم شخص بادعاء ما أن يفحصوا قضيته هل هو صادق أم لا؟ أو لم يكونوا من جهة أخرى يؤمنون فى أعماق قلوبهم أن يسوع ليس هو المسيا؟ لاشك أنهم كانوا يؤمنون يقيناً أن يسوع لم يكن إلا مجرّد مدّعٍ. ولكى نحكم على تصرفاتهم حكماً صحيحاً ينبغى أن نرجع قليلاً إلى الوراء. إنهم فى بداية سماعهم بخبر يسوع المسيح ضلوا الطريق، ولم يَقبل المسيح إلا من قليلين كان فى قلوبهم رجاء وفى صدورهم رحابة وتقوى. أما هؤلاء الرؤساء الدينيون فى اليهودية فى ذلك الوقت فلم تكن قلوبهم منتظرة ولا رحبة ولا مقدسة. كانوا فى حالة عجز تام عن أن يدركوه ولم يكن له فى عيونهم جمال ولا منظر فيشتهونه. وهذا ما قاله لهم الرب يسوع نفسه ولكنهم لم يؤمنوا. وإذ كانوا فى طريق الضلال تمادوا فيه إلى النهاية.

قد يقال أنهم تصرفوا على قدر النور الذى عندهم، لكن النور الذى فيهم

كان ظلاماً، فلم تكن عندهم ذرة من العدل. وتصرفاتهم فى إجراءات المحاكمة لاتدع مجالاً لتلمس العذر لهم. إن اتهاماتهم لم تكن محددة وواضحة ولم تكن الأدلة مستقيمة وقاطعة ولم يتيحوا للمتهم أية فرصة ليقدم أدلة النفى على ما يتهمونه به. كانوا هم المدعين وهم أنفسهم القضاة فى وقت واحد. وحكم الإدانة كان هو الغاية التى سبق رسمها وتقريرها، وكل إجراءات المحاكمة كانت سلسلة من الألاعيب التى قُصد من ورائها إرغام المتهم على الوقوع فى شَرك تؤخذ منه الحجة للحكم عليه بالموت، حتى أن واحداً من المؤرخين اليهود قال إنها لم تكن محاكمة ولكنها كانت عملية اغتيال، وكثيرون من المؤرخين يوافقون على هذا الرأى ويقولون أنه لم تكن هناك محاكمة فعلية بالمرة (٢).

وحتى بعد صدور الحكم نزل أولئك القضاة إلى دركات سحيقة من الضعة والهوان. إن أية محكمة ينبغى أن يكون لها وقارها، وعندما تنظر فيها قضية هامة ويصدر فيها حكم خطير ينبغى أن يستشعر القضاة أنفسهم رهبة العدالة. وحتى المذنب الذى يصدر ضده حكم الاعدام ينبغى أن يحاط بنوع من الرثاء والعطف. لكن تلك اللطمة التى وجهها واحد من خدام رئيس الكهنة إلى يسوع المسيح فى بداية المحاكمة كانت عنواناً كبيراً

---

(٢) وما حاجتنا إلى شهادة المؤرخين وعندنا شهادة الله التى هى أصدق؟ فإن بطرس بالروح القدس يقول صراحة «بأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أع ٢: ٢٣) واستفانوس يقول لهم أيضاً «البار الذى أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه» (أع ٧: ٥٢). إنهم قتلة. هذا وصفهم وحكم الله عليهم. (المعرب).

الحالة الذهنية التى كان عليها جميع الحاضرين فى الجلسة. فلم يكن عندهم جلال ولا وقار من أى نوع، ولم يكن فى قلوبهم سوى التشفى والانتقام ممن تحداهم وقلل من شأنهم فى نظر الجمهور وأوقف عند حد ريحهم القبيح. كانت أمواج من هذه المشاعر الخسيسة تتلاطم فى قلوبهم، فلما سنحت لهم الفرصة فاضت وتدفقت عليه. فضربوه بالعصى وبصقوا على وجهه، وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين : تنبأ من هو الذى ضربك. هذا كان من جانب اليهود رداً على دعواه كالمسيا النبى. أما العسكر الرومان فكانوا يجثون قدامه مستهزئين به رداً على دعواه كملك.

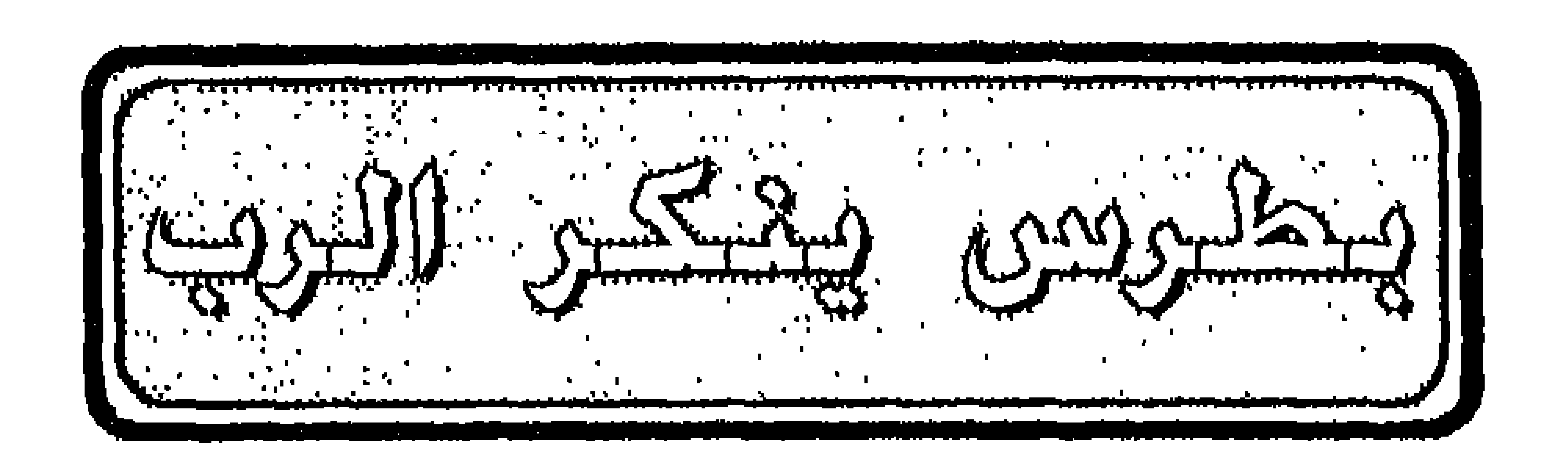
وكنا نرجو أن تصدر هذه الصغائر الحقيرة من صغا القوم الأدنياء، لكن سياق الكلام يدل على أن الرؤساء وشيوخ المجمع قادوا هذه الحملة وتبعهم الخدام.

إن فى داخل الإنسان أشياء مروعة. إن فى الطبيعة البشرية أسافل لا خير فى إلقاء نظرة عليها. وكان كمال المسيح الفائق هو الذى كشف أقصى أغوار الشر عند أعدائه.

والآن قد دخل المسيح إلى حلبة الصراع وجهاً لوجه أمام العدو الذى جاء - له المجد - إلى هذا العالم ليغلبه. وها هو العدو فى آخر جولات الصراع يبدى كل ضراوته وينفث من بين أنيابه أنقع السم. وها كف التنين تنشب فى جسد ابن الإنسان الكريم. ونحن لا نستطيع أن ندرك وقع تلك الإهانات والتحقيرات على نفسه الحساسة وشعوره الرقيق، لكنه وضع فى قلبه أن يحتمل كل شئ لأنه جاء ليموت عن الخطايا، لأن هذا الموت كان فيه خلاص البشر.



الفصل الثالث



بطرس ينكر الرب

إلى جانب صورة محاكمة الرب يسوع الدينية توجد صورة أخرى جانبية ينبغي أن نقف أمامها قليلاً قبل أن نتقدم إلى المحاكمة المدنية. ففي نفس الساعة التي كان فيها الرب يسوع في ديوان بيت رئيس الكهنة، يشهد للحق ويعترف الاعتراف العظيم، كان هناك واحد من تلاميذه في الساحة الخارجية لنفس البيت ينكره مرة ومرتين.

لما كان يسوع المسيح في جثسيماني وهناك أوثقوه ومضوا به إلى المدينة تركه التلاميذ وهربوا، وربما اختفوا بين خمائل البستان وأشجاره أو تسللوا إلى أطراف المدينة أو إلى أي مكان آخر التمسوا فيه السلامة لأنفسهم.

لكن اثنين من تلاميذه، بطرس ويوحنا، سرعان ما أفاقا من تأثير المفاجأة وتبعا الجمع من بعيد تحجبهما أحياناً أشباح الأشجار التي على جانب الطريق وأحياناً أشباح البيوت التي على جانبي الشوارع، وأخيراً عندما وصل الجمع إلى بيت رئيس الكهنة أسرع هذان التلميذان ودخل يوحنا في زمرة الجمهور إلى داخل البيت، أما بطرس فبقي خارجاً وربما كان ذلك لأنه تردد في الدخول، ثم أغلق الباب.

ولكي نعرف بعض ما جرى بعد ذلك نأتي على وصف عام لمبنى دار رئيس الكهنة. فلم تكن البيوت يومئذ مثل بيوتنا العصرية تطل على الشارع بل كانت تطل على الداخل، وليس للبيت ما يطل على الشارع سوى مدخله

الواسع وعتبته العليا نصف الدائرية. هذا المدخل الواسع تغلقه بوابة كبيرة يمتد خلفها دهليز عريض يؤدى إلى فناء واسع غير مسقوف يكسو أرضه بلاط كبير وتطل على هذا الفناء أجنحة البيت سواء الأدوار السفلية أو العلوية. والبوابة الخارجية الكبيرة نفسها فيها باب جانبى صغير لدخول أو خروج الناس فرادى. وإلى جانب البوابة من الداخل توجد عادة حجرة تفتح على الدهليز.

لما حضرت تلك الجماعة الغفيرة إلى بيت رئيس الكهنة لاشك أن إحدى الجوارى فتحت البوابة الكبيرة لكى يدخلوا ثم أغلقتها، ودلفوا من الدهليز إلى الفناء الفسيح ثم من الفناء إلى أحد الدواوين التى تطل على الفناء. وبعد ذلك تجمع بعض الخدام مع بعض الجند فى ناحية من هذا الفناء غير المسقوف، ولأن الوقت كان بعد منتصف الليل والجو بارد، أوقدوا ناراً ليستدفئوا !

سبق يوحنا، كما قلنا ودخل إلى بيت رئيس الكهنة. أما بطرس، لسبب ما ظل خارجاً، ويوحنا الذى يظهر أنه كان يتمتع بمركز اجتماعى أفضل بكثير من بقية التلاميذ كان معروفاً فى دوائر بيت رئيس الكهنة وكان يعرف الخدم. فلما لاحظ أن بطرس احتجز خارجاً، ذهب إلى الجارية البوابة ففتحت له الباب الصغير الجانبى واستدعى بطرس فدخل معه.

كانت هذه لفتة كريمة من يوحنا نحو صديقه بطرس، ولكن فى نفس الوقت كانت، كما برهنت الحوادث على ذلك، ورطة غير مقصودة. وقد يفعل الأصدقاء هكذا بأعز أصدقائهم أحياناً لأن الموقف الذى قد يوجد فيه شخص دون ما خطر أو حرج قد يكون دقيقاً وخطيراً بالنسبة لشخص آخر.

وقد يدخل شخص فى زمرة جماعة دون أن يلحقه منها أذى بينما آخر يخاطر بسلامته لو أنه اختلط بها. والتجربة دائماً يتوفر فيها عنصران متلازمان. الأول الظروف التى تؤلف معاً مسرح التجربة. والثانى الصفات الشخصية أو التاريخ الخاص للشخص الذى يواجه هذه الظروف. وينبغى دائماً أن نتذكر هذا إذا أردنا أن ننجو من التجارب.

دخل يوحنا مخترقاً الفناء إلى قاعة المحاكمة حيث كان يسوع المسيح. أما بطرس فلم تكن له الجرأة على ذلك واعتراه ما يعترى عادة الرجل العادى إذا دخل بيتاً من البيوت الكبيرة. زد على ذلك أن بطرس كان يخشى أن يعرف أحد أنه من أتباع المسيح، وإذا عرف فإن الضربة الرعناء التى أصاب بها أذن ملخس عند باب البستان لابد أن يدفع ثمنها غالياً.

لذلك بقى بطرس فى الدهليز يراقب من بعيد ما يجرى فى ديوان المحاكمة. كان حائراً وقلقاً لايعرف ماذا يعمل، وربما كانت عنده الرغبة فى أن يخرج إلى الشارع لأنه لم تكن له الجرأة أن يدخل قاعة الجلسة مع يوحنا ... مسكين بطرس إنه كان فى فخ ! وبدون أن يعلم كانت عين الجارية تتفرس فيه.

أخيراً دلف بطرس إلى تلك الجماعة التى كانت حول النار واندمج بينهم ليستدفئ. وكانت تلك الجماعة خليطاً غير متجانس من أصناف الناس فلم يحس بحضوره أحد وحشر بطرس نفسه فيهم كأنه واحد منهم.

كان بطرس يعمل حساباً كبيراً للخطر الجسدى الذى يتعرض له لو كُشف أمره ولم يكن يعمل أقل حساب للخطر الروحى. وهذا الأخير كان أقرب إليه جداً. وطبعاً يا له من خطر يحيط بكل مؤمن مسيحى «طوبى

للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس» ومن المحتمل جداً أنه عندما كان بطرس حول النار كانت أصداء التقريعات والاستهزاءات بيسوع المسيح تتردد فى الهواء. وبطرس ظل صامتاً، لكن عدم الاعتراف بالمسيح هو دائماً الخطوة الأولى التى تليها خطوة إنكاره. وجاءت التجربة من حيث لايدرى ولايتوقع، وإذا بالجارية التى لاحظت تردده وحيرته عند الباب جاءت إلى حيث كانت النار، ولما رأت بطرس تفرست فيه وقالت : «وأنت كنت مع يسوع الجليلى» وكانت مفاجأة كبيرة لبطرس، وكأن القناع قد مُزق من على وجهه، وفى لحظة غلبته غريزة الخوف، وأربما تملكته غريزة الخجل من أن يُظن أنه تلميذ لذاك الذى يستهزئون به، بل الخجل من أن يُعرف عنه أنه تلميذ للسيد الذى سمعهم الآن يجدفون عليه دون أن يحتج هو عليهم. الحق أن بطرس أنكر سيده بالفعل قبل أن ينكره بالكلام. من أجل ذلك عندما قال له آخر «وأنت منهم» أجاب وهو يصطنع الاستغراب «يا إنسان لست أعرف ما تقول». مرت هذه الواقعة دون أن يعلق عليها أحد، ولكن بطرس كان قلقاً جداً وأراد أن ينسحب من المشهد وينصرف كلية من المكان. لكن الفخ أطبق عليه مرة أخرى لأن جارية أخرى رأته فى الدهليز فقالت للذين كانوا معها : «وهذا كان مع يسوع الناصرى». مسكين بطرس ! لقد أنكر أمام هذه الأخرى بقسم أنه لا يعرف الرجل. ولم يجد بداً من أن يعود إلى حيث كانت النار وابتدأ يصطلى مضطرب النفس، تصطرع فيه العواطف وتغلى منه المشاعر كالمرجل، وحاول أن يخفى كل هذا بأن يشترك معهم فى الحديث ليبدد من حوله الشكوك، لكن واحداً من أقارب ملخس الذى قطع بطرس أذنه عرفه

لأن لغته ولهجته الجليلية أظهرته وقال له «أمَا رأيتك أنا معه فى البستان؟» وقال الحاضرون أيضاً «حقاً أنت منهم لأنك جليلى ولغتك تشبه لغتهم» فطار صواب بطرس وأُسقط فى يده واندفع يرد عن نفسه هذا الخطر بأن «ابتدأ يلعن ويحلف إنى لا أعرف هذا الرجل الذى تقولون عنه».

ومما لاشك فيه أن بطرس كان قبل تعرّفه بالرب يسوع شتاماً وحلافاً واختفت هذه العادة منه بسبب عشرته بالرب مدة طويلة لكن ها هى العادات القديمة تعود منتفضة يقظانة، وكل عادات الجسد القديمة التى نظن أننا دققنا المسامير فى نعشها ودفناها كثيراً ما تتحرك أكفانها فى قبرها وفى لحظة تنطلق بكل روائحها النتنة. هذه هى أجرة الأوقات التى أُعطيت للجسد. فالسكير والزانى والكذّاب والحلاف إذا ما تجددوا ينبغى عليهم جميعاً، وإلى آخر أيام حياتهم، أن يسهروا فى حراساتهم على القبور التى دفنوا فيها ماضيهم.

لكن هل اقتنع الناس من حول بطرس، بسبب إنكاره وحلفه ولعنه، أنه ليس من أتباع يسوع؟ كلا بل إنهم اقتنعوا بشئ آخر هو أن بطرس يتخبط فى خطايا يترفّع أتباع يسوع عن أن يقعوا فيها، لأنهم كانوا يعلمون أن ما من أحد من أتباع هذا الناصرى ينطق بمثل ما نطق به بطرس. ولاتزال هذه أقوى الشهادات للرب يسوع إلى الآن، فإن الذين لايؤمنون به يتوقعون دائماً من أتباعه نقاوة السلوك وعفة اللسان ويتعجبون إذا كان واحد ممن دعى اسمه عليهم يقع فيما هو طبيعى وعادى لو وقع فيه أحد من غير المؤمنين.

بينما بطرس ينكر ويلعن شعر أن عيون خصومه تتحول فجأة عنه إلى شخص آخر - إلى يسوع المسيح الذى كان يحاكم فى الديوان ويتلقى

ضربات واستهزاءات الذين من حوله. وعندما صاح الديك التفت الرب ونظر إلى بطرس، وفى نفس اللحظة التفت بطرس وتلاقت النظرتان. أما يسوع فلم يتكلم بشئ ولم يقل حرفاً واحداً، لأن أية كلمة أو بادرة تبدو منه نحو بطرس معناها افتضاح أمره، لكن فى لحظة سريعة تلاقت العيون.

ومن ذا الذى يقول ماذا كان فى نظرة يسوع المسيح هذه؟ قد يجمع العالم كله فى نظرة. وقد تكون النظرة أبلغ من مجلدات تحوى أبلغ منطق. وقد تقول النظرة ما لا تستطيع الشفاه أن تعبر عنه. بنظرة واحدة قد يهب الإنسان نفسه لآخر، ونظرة واحدة قد تصبغ الدنيا بلون الابتسامة الجميلة، وأخرى قد تغمر الدنيا بسواد من ظلمة اليأس.

إن الخطية هى نوع من الجنون، بل كانت فى حالة بطرس جنوناً واضحاً. كان بطرس مهزوزاً بعوامل الرهبة والانفعال حتى أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل. لكن نظرة الرب يسوع أعادته إلى صوابه وفى الحال تصرف كما يتصرف الرجال. فى الحال اتجه نحو الباب، لايفكر فيما يعترضه، لقد تجاوز الجارية البوابة ورفاقها بلا وجل، لأنه حقاً ليس فخ التجربة إلا وهماً من الأوهام لايعترض سبيل رجل ذى عزيمة.

لكن أيضاً كانت نظرة الرب يسوع مرآة صافية رأى فيها بطرس نفسه. رأى فيها فكر المسيح من نحوه وتزاحمت صور الماضى أمامه. لقد كان بطرس هو الوحيد بين رفاقه الذى شهد - فى لحظة لا تنسى - الشهادة الحقة عن المسيح ابن الله، ونال عندئذ المدح من فمه الكريم، وكان بطرس منذ سويعات قليلة هو الرجل الذى أقسم دون الكل أنه لن ينكر المسيح ولو كان دون ذلك أهوال الموت، والآن ها هو ينكر المسيح فى وقت الشدة ويجرح قلبه

الكسير. لقد اتخذ بطرس مكانه فى زمرة أعداء المسيح كأنه واحد منهم ويلعن وحلف أنكره. لقد خلع رداء التلمذة وعاد أدراجه إلى بعض ما كان عليه قبل الإيمان.

على أن هناك ما هو أكثر من كل ذلك فى تلك النظرة. إنها كانت نظرة مسعفة منجدة. ولو أن أحداً رأى بطرس وهو يهرول نحو الباب لكان على حق إذا ما أشفق مما قد يحدث له. إلى أين يُسرع بطرس الخُطى؟ هل إلى تلك المقصلة التى تعلّق عليها يهوذا الاسخريوطى بعد ذلك بساعات قليلة؟ إن بطرس لم يكن بعيداً عن ذلك. ولو أنها كانت نظرة غاضبة لمحها بطرس فى عينى يسوع المسيح عندما التقت عيونهما لما استبعدنا هذا المصير على بطرس. لكن نظرة الرب يسوع لم يكن فيها وميض الغضب. نعم كانت فيها ولاشك مرارة الألم وعليها مسحة الحزن الكثير لكن كان فيها أيضاً، وفى أعماقها، ذلك الحنان الذى يطغى على كل لون آخر فى تلك النظرة - حنان المخلص الذى مرة مدّ يده الكريمة وأمسك ببطرس لما ابتدأ يغرق فى البحر، وبنفس هذا الحنان أمسك به الآن.

فى تلك النظرة الخاطفة رأى بطرس غفراناً وحباً لايُنطق به، وإن كان بطرس قد رأى نفسه فى هذه النظرة، فهو أيضاً قد رأى مُخلّصه - رأى عواطف قلبه بصورة لم يختبرها من قبل. إنه رأى الآن أى سيد قد أنكر، فبكى بقلب منكسر. إن خطايانا لا تجعلنا نبكى، بل نحن نبكى عندما نتفكر فى أى مُخلّص ذاك الذى أخطأنا إليه. بكى بطرس بكاءً مراً، لا ليغسل خطيئته بل لأنه أيقن أنها قد غُسلت وانمحت.

لقد كانت دموع بطرس هى البداية الحقيقية لكل الخير الذى كان الرسول

بطرس مزمعاً أن يصنعه فى هذا العالم.

والآن لندع بطرس ولتكن أفكارنا فى ختام هذا الفصل مركزة على ذاك الذى وهو فى غمار الألم، عندما سمع اسمه يُنكَر بل ويُقرَن بحلف ولعن لم يستسلم قط للشعور بالغضب الذى تخلقه مثل هذه الخيانة، بل إذ نسى أحزانه الشخصية وإذ قد سيطرت عليه محبته كمخلص ألقى نظرة عابرة فيها الحب والعطف كله. وفى لحظة رفعت هذه النظرة ذلك التلميذ الفاشل من وهدته وأقامت على صخرة رجليه. ومنذ ذلك الحين فصاعداً ظل بطرس قائماً على تلك الصخرة. وكان بطرس نفسه صخرة فى ثبات إيمانه وقوة شهادته.



الفصل الرابع

المحاكمة المدنية

١ـ يسوع وبيلاطس

٢ـ يسوع وهيرودس

٣ـ مرة أخرى أمام بيلاطس

٤ـ إكليل الشوك

٥ـ تحطيم بيلاطس

٦ـ يهوذا الاسخريوطى

١ ــ يسوع وبيلاطس

رأينا فيما سبق هيئة السنهدريم تصدر حكم الموت على يسوع المسيح وكم كان يسعدهم لو استطاعوا أن ينفذوا الحكم بالطريقة اليهودية أى بالرجم، ولكن كما قلنا، لم يكن فى مقدورهم ذلك، لأن سادتهم الرومان الذين أجازوا للمحاكم الوطنية الدينية سلطة الفصل فى المسائل الصغيرة، احتفظوا لأنفسهم بحق الفصل فى القضايا الكبيرة خصوصاً إذا كانت العقوبة هى الموت. فإذا أصدرت محكمة وطنية حكماً من هذا القبيل وجب أن تطرح القضية برمتها من جديد على ممثل الحكومة الرومانية هناك ليعيد المحاكمة ثانية، وكان له أن يؤيد أو ينقض الحكم. وبناء على ذلك بعد أن أصدروا الحكم على يسوع المسيح كان حتماً عليهم أن يمضوا به إلى بيلاطس البنطى الذى كان يتولى الأمر فى فلسطين باسم امبراطور روما.

شغل بيلاطس مركزه كوالٍ سنوات عديدة ورغم ذلك لم يكن يحب رعاياه ولم يكونوا يحبونه. وكان اليهود من بين سائر الشعوب التى أخضعتها روما أكثرهم تمرداً وأصعبهم مراساً. كانوا يذكرون مجدهم التليد وتاريخهم الحافل، كما كانوا يحلمون برجاء أمجد فى إمبراطورية عالمية، ومن أجل ذلك كانوا يضيقون ذرعاً بنير التبعية لروما. كانوا على الدوام يلمحون فى مسلك حكامهم إهانات توجه إلى كبريائهم وإلى ديانتهم كما جأروا بالشكوى من الضرائب الباهظة، فراحوا يزعجون حكامهم بالطلبات والشكاوى. وبيلاطس

لم يكن قط على وفاق معهم وانعدم الود بين الطرفين تماماً. كان هو يكره تعصبهم، وكثيراً ما تصادم معهم وأهرق دماءهم. وكانوا هم يتهمونه بالفساد والقسوة والاختلاس وسوء الإدارة في كل ناحية.

ولم يكن مقر الحاكم؛ وهو الشخص الذى تعوّد العيش بين ملاهى روما وملاعبها وحماماتها ومجتمعها الذى أسهم كثيراً فى مختلف الفنون. نقول لم يكن مقر حكمه في أورشليم حيث لايستطيع أن يعيش بل فى قيصرية، الميناء الجديد الجميل، الذى فى جماله ومباهجه كان نموذجاً مصغراً من روما. وبين الحين والحين كان ينبغى على الحاكم أن يزور العاصمة أورشليم لأسباب تتعلق بأعمال الولاية، كما كان يزورها عادة فى مناسبات خاصة كما زارها هذه المرة قبيل عيد الفصح.

وهناك فى أورشليم كان ينزل الحاكم فى دار الولاية التى هى «القصر الملكى» لما كان لليهودية ملك. وقد بنى هذه الدار هيرودس الكبير الذى كان مولعاً بفن العمارة وشيدت الدار على ربوة إلى الجنوب الغربى من الهيكل. وكانت فخمة البناء لاتقل فخامةً عن الهيكل ذاته. وكانت فسيحة كى تتسع لإيواء جيش صغير. وكانت تتكون من جناحين عظيمين تربط بينهما بناية أخرى وأمام هذه البناية تمتد ساحة فسيحة يكسوها البلاط الواسع. وههنا فى هذه الساحة وعلى منصة عالية كان مشهد المحاكمة المدنية لأن وجوه اليهود لم يكن فى استطاعتهم أن يدخلوا الدار لأنها عندهم نجسة. وبيلاطس كان يوافقهم على ما يعتقدون، ولربما كان يلعنهم فى قلبه. لكن من ناحية أخرى كانت العادة عند الرومان أن يعقدوا المحاكم فى الهواء الطلق. وحول هذه الساحة كانت أجنحة المبنى تحملها أعمدة فخمة ضخمة ومن

حول تلك الأجنحة كانت تحيط حديقة ممتدة فيها شجر ونخيل وأحواض وممرات ونافورات تدفع مـاءها تحت ضـوء الشـمس. وهنا وهنالك حـول الأحواض والنافورات تتجمع وتتفرق أسراب من الحمائم الهادئة الوادعة.

ومع أضواء الصباح الأولى دخلت من البوابة الفخمة جماعة السنهدريم وفي وسطهم سجينهم - وخرج بيلاطس ليستقبلهم وجلس على كرسى الولاية وإلى جانبه حُجّابه وكُتّابه، وخلفه لاشك وقف عدد من العسكر الرومان يلقون على الجمع نظرات جافة وفي أيديهم رماحهم المسنونة. وكان على المتهم أن يصعد إلى المنصة أيضاً وأمامه ممثلو الاتهام وعلى رأسهم قيافا .

يا له من منظر !! إن رؤساء الأمة اليهودية يقتادون مسيّاهم فى قيود ليسلموه إلى حاكم أممى ويطلبون الحكم عليه بالموت !! أين أبطال تلك الأمة؟ وأين أنبياؤها الذين أحبوها وافتخروا بها وأنبأوا عن مستقبلها المجيد؟ لكن الساعة قد أتت، والأمور جرت إلى خاتمة محتومة.

إنها أمة تنتحر. وهل هى تنتحر فقط؟ ألم تكن فعلتهم الشنعاء كأنها إحباط لمقاصد الله ومواعيده؟ هكذا بدت الأمور فى ظاهرها، ولكن الله لا يُشمخ عليه، وقصد الله لابد أن يُنفذ ولو عن طريق خطأ الإنسان. لقد جاء اليهود بابن الله إلى كرسى بيلاطس كيما يتفق الأمم واليهود معاً على إدانته، لأنه كان جزء من عمل الفادى أن يشهر خطية الجنس البشرى. وههنا كانت تستعلن الأبشع والأشنع بين خطايا البشر، لما تطاولت يد البشرية ضد صانعها وباريها.

لكن كان فى ذلك الموت الذى ذاقه ابن الإنسان حياة للناس. ويسوع المسيح لما وقف بين اليهود والأمم، جمعهما معاً فى شركة خلاص مشترك.

حقاً «ياالعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» (رو ١١:٣٣).

من فوق تلك المنصة ومن على كرسى الحاكم طلب بيلاطس من اليهود أن يقولوا بماذا يتهمون سجينهم، وكان جوابهم محبوكاً فقالوا «لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك» وكان غرضهم الذى هدفوا إليه بهذا الجواب أن يتغاضى بيلاطس عن حقه فى إعادة المحاكمة وأن يُصادق على ادعائهم ويختم على ما حكموا به وأن يَقنع بأن يمارس من حقوقه ما يختص بتنفيذ العقوبة فقط. وهكذا كان الحال أحياناً مع بعض حكام الأقاليم، إما عن فساد فى الإدارة أو عن تملق لأعيان البلاد خصوصاً إذا كانت المسألة دينية لا يُنتظر من أجنبى أن يفهمها على حقيقتها. ومثل هذه التملقات كانت من الأمور العادية التى يستسيغها منطق الحاكم والمحكوم على السواء.

لكن لم يكن بيلاطس لين العريكة فقال لهم «خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم» وكأنه بهذا يقول لهم «إن كنت لا أفحص القضية فلن أصدر فيها حكماً ولن أنفذ لكم ما حكمتم به. وإن كنتم تصرون على أن هذه قضية من اختصاص رجال الدين فلتكن لكم وخذوها على أن تقنعوا بتوقيع العقوبة التى يسمح لكم بها القانون الرومانى دون سواها».

كانت إجابة بيلاطس فى الصميم فإنهم كانوا يتعطشون إلى موت المسيح وكانوا يعرفون أن كل ما يستطيعون أن يفعلوه فى ظل القانون هو الحبس أو الضرب بالعصى.

لقد وطئ بيلاطس الماكر بكل هدوء بقدمى روما على أعناقهم وكان يكتم فى قلبه لذة خاصة وهو ينتزع من أفواههم اعترافهم حين قالوا «لايجوز لنا

أن نقتل أحداً».

وإلى هنا وجدوا أنفسهم مضطرين أن يوجهوا اتهامهم إلى يسوع المسيح فراحوا يكيلون الاتهامات كما شاءوا، وانتهى الأمر بأن انحصرت اتهاماتهم فى ثلاثة أمور : أولاً أنه يُفسد الأمة، وثانياً أنه يمنع أن تُعطَى الجزية لقيصر، وثالثاً أنه يُقيم من نفسه ملكاً. لكن ويا للعجب، نلاحظ أنهم لم يذكروا العلة التى من أجلها أدانوه هم، فإنهم حاكموه وحكموا عليه ليس لواحدة من هذه التهم بل حكموا عليه لأنه «جدَّف»، وهم يعرفون تماماً أنهم لو أثاروا مثل هذه التهمة فى مثل ذلك المكان لكانت النتيجة رفض الدعوى وطردهم خارج الأبواب. ألا نذكر ماذا قال حاكم رومانى آخر لليهود عندما أثاروا اتهاماً مماثلاً وجهوه إلى بولس؟ قال غاليون والى أخائية لليهود «لو كان ظلماً أو خبثاً ردياً أيها اليهود لكنت بالحق قد احتملتكم ولكن إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء وناموسكم فتبصروا أنتم لأنى لست أشاء أن أكون قاضياً لهذه الأمور. فطردهم من الكرسى» لذلك بامتناعهم عن ذكر العلة الحقيقية التى على أساسها حكموا على المسيح وضعوا أنفسهم فى مأزق فراحوا يطلقون الاتهامات ويخترعون الجرائم بلا روية.

كانت التهمة الأولى وهى أن يسوع المسيح يُفسد الأمة، تهمة غامضة. كيف كان يُفسد ومتى؟ وأين البيِّنات على هذا الإفساد؟ إنهم يُقيمون الاتهام بلا سند ولا دليل، ولذلك كانت التهمة ظاهرة البطلان. لكن ماذا عن التهمة الثانية أن يسوع المسيح يمنع أن تعطَى جزية لقيصر؟ ألم يسمعوا من فم الرب يسوع نفسه فى ذلك الأسبوع عينه ما قاله بخصوص الجزية «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»؟ إن الكذب فى هذا الادعاء أوضح من أن

يوضح. أما الاتهام الثالث فقد كان فيه بعض الحقيقة فإن المسيح قال عن نفسه فعلاً أنه مسيح ملك ومع ذلك فإنهم كانوا يعرفون تماماً أن وقع كلمة ملك على أذنى حاكم رومانى يختلف كثيراً جداً عن وقع مسيح فى آذانهم. إنهم احتقروا يسوع المسيح لأنه لم يظهر بمظهر الملك بالمعنى الذى يفهمه الرومان، لأنهم كانوا ينتظرون قيام هذا الملك الذى يتشح بصيت عريض وشهرة عسكرية لكى يكسر النير الرومانى وجعل من أورشليم عاصمة إمبراطورية عالمية ـ لكن لأن روح المسيح وأهدافه كانت بعيدة كل البعد عن ظنونهم وأمانيهم احتقروه وكرهوه.

وبيلاطس عرف جيداً من هم الذين يتعامل معهم. إنه كان يبتسم فى قلبه وهو يسمع منهم عن غيرتهم على أداء الجزية لقيصر. وواحد من البشيرين قالها بصراحة أنه عرف «أنهم أسلموه حسداً» ولسنا نظن أن بيلاطس كان يجهل كل شئ عن يسوع. صحيح نحن لانعرف إلى أى مدى وصلت معرفته عن يسوع المسيح، لكن بيلاطس كان حاكماً فى كل المدة التى شهدت الحركة التى ابتدأها يوحنا المعمدان وأتمها يسوع المسيح. بل إن حلم زوجة بيلاطس الذى سنتناوله بالتعليق بعد قليل لدليل على أن أخبار يسوع المسيح كانت موضوع أحاديث فى قصر الحاكم، بل أيضاً ربما أخباره كشخص مملوء غيرة يناضل ضد الكهنة الأدعياء، كانت من مبررات زيارة الحاكم وزوجته لأورشليم. إن بيلاطس لم يكن يؤمن بشكاوى اليهود ضد المسيح أو على الأقل ليس هناك أى دليل على أنه اقتنع بما يقولون. لكن التهمة الثالثة وهى أن المسيح أقام نفسه ملكاً لم تكن من التفاهة عنده حتى أنه لايعيرها أى التفات. لذلك لما سمع بيلاطس هذه الاتهامات أخذ يسوع إلى داخل

القصر ليسأله عنها. ولعله فعل ذلك لكى يتفادى وقاحة أولئك المدّعين والتى بلغت وقتذاك مبلغاً كبيراً. ويسوع المسيح لم يتحرج من أن يدخل دار الحاكم كما تحرج اليهود فهل لنا أن نقول أنه الآن يتجه إلى الأمم بعد أن رفضه اليهود؟ وأن حائط السياج المتوسط بدأ يتحطم ويسوع المسيح يطأ حطامه بقدميه؟

وقف يسوع المسيح وبيلاطس وجهاً لوجه فى ذلك البهو الداخلى، يسوع فى موقف المتهم المقبوض عليه وبيلاطس فى موقف القاضى الديان. لكن يا للعجب كان بيلاطس هو العتيد أن يُدان - هو وروما التى يمثلها - إن نوراً فاحصاً كشافاً يشع دائماً من يسوع فينير خفايا الظلام - يفتش الزوايا والمخادع. وكم من مرة حكمنا على أنفسنا عندما وُجدنا أمامه. ونحن لا نستطيع أن نعرف أنفسنا تماماً إلا إذا كنا نرى أنفسنا فى نور وجهه.

لقد سأله بيلاطس «أأنت ملك اليهود؟» فكان جواب المسيح فى منتهى الحرص والحذر. لقد كان الجواب سؤالاً «أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنى؟» وكأن الرب يسوع أراد أن يعرف بأى معنى وجه إليه السؤال - هل قصد به بيلاطس ما يفهمه الرومان من معنى كلمة ملك أو ما يفهمه اليهود، لأن الإجابة حتماً تختلف باختلاف وجهتى النظر. فغضب بيلاطس وقال له «ألعلى أنا يهودى. أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إلىّ. ماذا فعلت» يا للعار ! الأمة التى أحبها ولأجلها كرّس حياته أسلمته إلى أيدى الأمم. وفى الحال ابتدأ يسوع يجاوب على سؤال بيلاطس من كلتا الوجهتين، من وجهة النظر الرومانية السياسية ومن وجهة النظر اليهودية الدينية فقال «مملكتى ليست من هذا العالم». إنه لاينافس إمبراطور روما. ولو كان ينافسه لكان

أول أعماله أنه يجمع حوله جيشاً يحرر به بلده من الاحتلال الرومانى، ولكان أول واجب على هؤلاء الجنود أن يدافعوا عن شخصه. لكن ثبت أنه عند القبض عليه لم يكن من جانبه أية مقاومة أو دفاع، بل لقد أمر واحداً من أتباعه جرد سيفه ليضرب به، أن يغمد سيفه كما كان. إن مملكته التى كانت أمامه لا تقوم على قوة أو على مجد أرضى زائل. لكن يسوع وهو ينفى هذا الزعم استعمل كلمة «مملكتى» فقال له بيلاطس «أفأنت إذاً ملك؟» فأجاب يسوع «أنت تقول إنى ملك لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع صوتى». هذه هى مملكته. إنها مملكة الحق، وتختلف جداً عن مملكة قيصر. كان قيصر يسود على أجساد الناس لكن مملكة يسوع المسيح تسود على القلوب. ومملكة قيصر كانت تتمثل قوتها فى جنود وأسلحة وقلاع وأساطيل، أما قوة مملكة الحق فتتمثل فى مبادئ روحية سامية. وكل ما عاد على الناس من قيصر مجرّد ضمان ظاهرى لأشخاصهم وممتلكاتهم، أما ملكوت المسيح فبركاته بر وسلام وفرح فى الروح القدس. ومملكة قيصر كأى مملكة بشرية أخرى عاشت أيامها ثم عفى عليها الزمن أما ملكوت المسيح فليس له انقضاء.

«كل من هو من الحق يسمع صوتى» إنها كلمة فاحصة يصوبها الرب يسوع إلى هذا الحاكم وكأنه يقول له «إن كنت تحب الحق فآمن بى» لقد كرز يسوع المسيح لديّانه الذى وقف أمامه يقاضيه. ويمثل هذه العبارة بشّر بولس، وجعل فيلكس يرتعب، كما جعل أغريباس يقول «بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً» لقد صوّب يسوع المسيح سهمه كالمبشّر والمخلّص إلى ضمير بيلاطس. وصياد النفوس ينبغى له أن يصوب نحوها من كل زاوية.

وما معنى «كل من هو من الحق يسمع صوتى»؟ أليس فى هذا العالم جمهور من رجال ونساء يبحثون عن الحق ومع ذلك لايعرفون قليلاً ولا كثيراً عن المسيح؟ حقاً إنها لكلمات قوية فإنه يعنى بها «كل من هو مولود من الله». فإن كنت من أولئك الذين يبحثون عن الحق بعقولهم فقط ولايريدون أن يملك الحق على قلوبهم فيتحكم فى سلوكهم ويطهّر نفوسهم، فإنك غريب عن الحق ولن تفيدمن سعيك وراء الحق شيئاً.

كان بيلاطس غريباً عن الحق. كان يتفكر فى الأرضيات، لم يكن يسعى إلى ما لا يُرى أو ما لا يُلمس. ومملكة الحق وملك الحق عنده كانا كبضاعة من عالم الوهم والخيال. فقال «وما هو الحق؟» وقبل أن يسمع جواباً استدار على عقبيه ومضى. سأل عن الحق كما يسأل الفاجر عما هى الفضيلة. أو كما يسأل الطاغية عما هى الحرية. لكنه كان مقتنعاً تماماً أن يسوع المسيح كان بريئاً واعترف أن روما لاتخشى من غيرته وتحمسه شيئاً فخرج إلى الجمع وقال قولته المشهورة «أنا لست أجد فيه علة واحدة».

***

٢ ـ يسوع وهيرودس

لقد حاكم بيلاطس يسوع المسيح ووجده بريئاً ونطق بحكم البراءة في مواجهة أعضاء السنهدريم وبذلك نقض حكمهم. فماذا كان ينبغي أن يترتب على ذلك؟ بكل تأكيد كان ينبغي أن يُطلق سراحه، وإذا لزم الأمر كان يجب أن تُكفَل له الحماية ضد عداوة اليهود.

فلماذا لم يحصل ذلك؟ هناك حادثة وقعت في أيام بيلاطس وسجلها واحد من المؤرخين. ولعل تلك الحادثة هي أفضل تفسير وفيها الجواب على هذا السؤال. فقد حدث قبل محاكمة المسيح ببضع سنوات ـ وكان بيلاطس قد ولي أمر اليهودية حديثاً ـ أنه أراد أن ينقل قيادة جيش الاحتلال الروماني من قيصرية إلى أورشليم، وفعلاً دخل جنود الاحتلال المدينة المقدسة تتقدمهم أعلامهم وكل منها يحمل صورة الامبراطور، وعند الذهن اليهودي كانت تلك الصور تمثل الوثنية. وحلول هؤلاء الجنود بألويتهم اعتُبر إهانة جارحة لمشاعرهم ومُنجسة لمقدساتهم، فهرع وجهاء اليهود ورؤساؤهم إلى قيصرية حيث كان يقيم بيلاطس وطلبوا إليه أن يأمر بإجلاء هذه القوات، ولكنه رفض واستمرت مظاهرتهم خمسة أيام حمي فيها وطيس المناقشات والمجادلات وأخيراً تضايق بيلاطس فأمر جنوده بأن يطوقوا هؤلاء القادة وهددهم بالموت إلا إذا التزموا السكينة وتفرقوا في هدوء. ولكنهم في عناد شديد انطرحوا أرضاً وكشفوا عن أعناقهم وهتفوا في وجه بيلاطس أنهم يفضلون

الموت على أن تُنجس مدينتهم، وهنا رضخ بيلاطس ولم يجد بداً من أن يسحب الجيش من أورشليم.

هذا هو نوع الحاكم، وهذا هو نوع الشعب الذى كان يتعامل معه. فلم يكن بيلاطس نداً لهذا الشعب خصوصاً إذا وضعوا قلوبهم على أمر ما وأدخلوا فى هذا الأمر كبرياءهم الدينية. وفى موضوع الحكم على يسوع المسيح فعلوا معه مثل ما فعلوا فى المرة السابقة. لقد أعلن بيلاطس على الملأ براءة يسوع المسيح، وبناء على ذلك كان يجب أن تنتهى المحاكمة، لكنهم ملأوا الجو صراخاً مدوياً أو على حد تعبير البشير لوقا «كانوا يشددون» ومرقس يقول «ازدادوا جداً صراخاً» وأخذوا يكيلون تهماً جديدة ليسوع المسيح.

لم يكن بيلاطس قادراً على مقاومتهم، ونراه فى ضعف وحيرة يلتفت إلى يسوع المسيح ويقول له «أما تجيب بشىء؟ أنظر كم يشهدون عليك» ولكن لم يجبه يسوع بشىء. إنه لم يُرد أن تطول إجراءات المحاكمة فلم يشأ أن يجيب ولا بكلمة واحدة حتى تعجب بيلاطس. نعم يتعجب بيلاطس لأن المسألة كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة ليسوع المسيح، ومع ذلك كان هو الوحيد الهادئ المطمئن بين كل هذا الجمع الهائج المضطرب.

وفجأة فى وسط هذا الصخب انفتح باب خلاص أمام بيلاطس من الحرج الذى وُجد فيه. كان الشعب يصرخون قائلين «إنه يهيّج الشعب وهو يعلّم فى كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا» وكان ذكرهم للجليل مقصوداً به إحراج يسوع المسيح لأن الجليل كانت الكورة المعروفة بنشاطها المعادى للسلطة الحاكمة، لكن هذه الكلمة أخذت بأفكار بيلاطس إلى اتجاه آخر.

وسرعان ما سمع هذه الكلمة حتى سأل «هل الرجل جليلي؟» لقد تذكر بيلاطس أن هيرودس حاكم الجليل كان في أورشليم فى ذلك الوقت ليحتفل بعيد الفصح. ولما لم يكن أمراً غريباً فى تلك الأيام بموجب القانون الرومانى، أن يرحل المتهم من مكان القبض عليه إلى موطنه الأصلى ليحاكم هناك، رأى بيلاطس أن الفرصة قد سنحت له لكى يرسل يسوع ليحاكم أمام الجهة المختصة، أى لدى كرسى هيرودس وفى مقاطعة الجليل التى ينتمى إليها، وبذلك يستريح من هذه القضية أولاً وآخراً. وفى الحال نفّذ هذه الفكرة وذهب يسوع فى حراسة جند بيلاطس كما ذهب معه المشتكون عليه إلى سراى المكابيين العتيقة التى كان يقيم فيها هيرودس إبان زياراته للمدينة المقدسة.

وهكذا كان يسوع المسيح فى ذلك اليوم ككرة تتقاذفها الأيدى، فمن حنان إلى قيافا، ومن قيافا إلى بيلاطس، ومن بيلاطس إلى هيرودس ... الخ وهكذا أضيفت إلى قائمة آلام المسيح تلك الترحيلات المهينة وهو مقيد يحوطه حراسه ومضطهدوه.

نقرأ فى العهد الجديد عن كثير من الهرادسة، وينبغى هنا أن نبين أيهم هذا الذى نحن بصدده.

أول من نقرأ عنه من الملوك الهرادسة هو الذى قتل أطفال بيت لحم عندما كان الصبى يسوع وأبواه فى مصر. وكان ذلك الملك يُدعى هيرودس الكبير وكان يحكم كل فلسطين ولو أنه كان يحكم بإذن من روما. ولما مات قُسّمت مملكته بين أبنائه. وكانت يد روما فى هذا التقسيم أيضاً وبذلك تمكنت قبضة الرومان فى البلاد أكثر من ذى قبل، لأنه كلما صغرت مساحة

الولايات المخضعة قويت يد الرومان. وقد أعطيت اليهودية لأرخيلاوس ولكنها لم تلبث أن أخذت منه لتديرها روما بنفسها عن طريق الولاة الرومانيين، وكان بيلاطس واحداً منهم. وأعطيت الجليل وبيرية للابن الثانى لهيرودس وهو أنتيباس، وفى شمال فلسطين ولى الابن الثالث وهو فيلبس، وهيرودس الذى نتكلم عنه الآن هو بذلك الابن الثانى أنتيباس.

كان هيرودس أنتيباس على درجة من الكفاءة، وفى بداية حكمه بشّر الشعب بعهد يستقيم فيه الحكم وتصلح الإدارة، وكان مثل أبيه يحب فن العمارة. وهو الذى بنى مدينة طبرية المعروفة لكثيرين، لكنه أقدم على خطوة انتحارية لما دخل فى علاقة آثمة مع هيروديا زوجة أخيه فيلبس. لقد تركت هيروديا زوجها وأتت لتقيم مع هيرودس أنتيباس الذى بدوره هجر زوجته «باترا» ابنه الحارث ملك العربية.

كانت هيروديا قوية الشخصية واستطاعت أن تبقى إلى جانب أنتيباس طوال حياته كزوجة غير شرعية. ومع ذلك، ورغم هذه السقطة لم تخمد تماماً عنده النزعة إلى الخير. ولما بدا يوحنا المعمدان ينذر الناس، كان هيرودس أنتيباس يهتم كثيراً بهذه الكرازة وكان يستدعى يوحنا إلى القصر ليسمع كرازته بقبول وسرور إلى أن قال له يوحنا «لايحل أن تكون لك امرأة أخيك» فهنا من أجل هذه الكلمة ألقى يوحنا فى السجن، ومع ذلك كان هيرودس يطلبه أيضاً ويستدعيه. وحسب الظاهر كان يتأثر من الناحية الدينية. كانت تعجبه صفات يوحنا كما كانت تعجبه كرازته. وقد نسبت إلى هيرودس أنتيباس أعمال كثيرة لكنه لم يستطع أو بالحرى لم يرد أن يفعل الشئ الواحد اللازم، وظلت هيروديا تتربع فى مركزها. وطبيعى أنها كانت تخشى

كما كانت تكره رجل الله الذى أراد أن يقصيها فكانت تتربص له. وسنحت لها الفرصة فاقتنصتها ونجحت إلى أبعد الحدود مستخدمة فى ذلك ابنتها سالومة وهى ليست ابنتها من أنتيباس بل من زوجها الأول فيلبس، وفى عيد ميلاد الملك رقصت سالومة أمام هيرودس وفى نشوة إعجابه بها وعدها بأن يقدم لها ما تطلبه ولو إلى نصف المملكة. وإذ بتلك الساحرة الصغيرة التى أنشأتها أمها ودربتها على الفجور تأتى وتطلب رأس يوحنا رجل الله. ولم يستطع الملك أن يرد طلبتها.

تلك الجريمة البشعة ملأت رعاياه بالرهبة والرعب حتى أنه بعد هذه الأيام بقليل عندما جرد الملك الحارث - والد زوجته باترا - جيوشه لينتقم لابنته وأوقع بهيرودس هزيمة منكرة، راح الشعب يعتبر ذلك الأمر جزاء عادلاً لما فعل من آثام.

لقد كان ضمير هيرودس مثقلاً بالتأنيب حتى أنه عندما سمع كرازة يسوع المسيح ظن أول الأمر أن هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات. ولاشك أن ضميره ما لبث أن مات وانحدر هيرودس بخطى سريعة إلى هاوية الفساد حتى أن البلاط الملكى فى أيامه كان يعتبر وكراً من أوكار الرذيلة جاء إليه المغنون والمغنيات من كل ناحية وضعفت شخصية هيرودس حتى أصبح ألعوبة فى يد كل من أراد أن يلعب به. وحتى زياراته السنوية إلى أورشليم لم يكن الدافع إليها دينياً بقدر ما كان سعياً وراء الملذات واستطلاع بعض ما يجرى على مسرح الحوادث هناك.

وكان لقاء بين يسوع المسيح وهيرودس. ولو أن هيرودس كان له ضمير - ولو ضمير إنسان شرير - لخجل من أن يلتقى بالرب يسوع. إن هيرودس

تملكه الخوف مرة من مجرد سماع أخبار يسوع المسيح لكن هذا كله قد انتهى الآن. لقد أمحت هذه المشاعر وحلّت مكانها مشاعر جديدة. لقد «فرح جداً» برؤية يسوع المسيح. وشعر بامتنان لهذه اللفتة التى حياه بها الحاكم الرومانى وقد كانا قبل ذلك فى عداوة، ولكن تلك اللفتة أعادت بينهما المودة من جديد، على أن فرحه برؤية يسوع كان على أن يرى منه آية، فإنه على مدى سنتين أو ثلاث سنوات كانت مملكته مسرحاً لمعجزات كثيرة صنعها يسوع المسيح. غير أن هيرودس نفسه لم يكن قد رأى صانع المعجزات الذى ذاعت أخباره فى جميع الآفاق والآن قد سنحت أمامه الفرصة. وبلاشك كان يعتقد أن المسيح سوف ينتهز هذه الفرصة ويستعرض أمامه قدرته ويزيد من دهشته وإعجابه.

تكلم هيرودس مع يسوع المسيح كصديق وسأله عدة أسئلة وحسب الظاهر لعله نسى تماماً الغرض الذى من أجله أرسله إليه بيلاطس، وراح يتكلم عن أمور كثيرة ولعلها أمور تتصل بالتدين والديانة. وما أكثر كلام أولئك الذين هم بلا دين عن الأمور الدينية. وما أكثر الذين يحبون أن يسمعوا وعاظاً ويكرهون أن يسمعوا كلمة الوعظ. ولن تجد لساناً أفصح وأبلغ من لسان الأدعياء المرائين.

وفرغ هيرودس من كلامه وانتظر ماذا يقول المسيح وظل ينتظر، ولم يجبه المسيح بكلمة واحدة. وطالت فترة الانتظار حتى تحرج الموقف ولم يقطع يسوع المسيح هذا الصمت الثقيل بكلمة.

لقد أرسل المسيح إلى هيرودس لكى يحاكم ولكن هيرودس لم ينظر القضية، وكانت هذه فرصة سانحة أمام يسوع لكى يخرج حراً. كان يمكنه

أن يصنع معجزة يُشبع بها لهفة هيرودس ويخرج من أمامه محملاً بالهدايا موفور السلامة من ظلم اليهود. لكن يسوع المسيح لم يفعل قط معجزة واحدة لأجل مصلحته الشخصية ولم يكن معقولاً على الإطلاق أن يجيب رغبة هيرودس. لقد كان المسيح يعرف جيداً مقدار اهتمام هيرودس بالأمور الدينية وأنه اهتمام ظاهرى وأنه يتكلم عن الروحيات بشفاه نجسة لذلك لم يُجب على كل ما قاله هيرودس بكلمة واحدة. وأيضاً لايجيب على أمثال هيرودس وأنهم لكثيرون. هؤلاء هم الذين يكرهون الاختلاء بأنفسهم لكى لا تنكشف لهم مآسى شرورهم.

ولعل قارئاً يقول أن يسوع كان يجب أن يتكلم وأن لايدع الفرصة تمر دون أن يحرك ضمير هيرودس ليوقظه ويبصره بطريق الحياة ويفتح عينيه على خطاياه. ونحن نقول أن صمت يسوع المسيح كان أبلغ من الكلام. ولو أن بقية من ضمير بقيت عند هيرودس لتحرك هذا الضمير من تلك النظرات الفاحصة ومن ذلك الجلال المهيب. لو أن بقية من ضمير بقيت عنده لهبت خطيته من قبرها وعصفت به. إن يسوع بقى صامتاً لكى يترك صوت المعمدان القتيل يجلجل فى تلك القاعة.

أما نحن فلا ندرى ماذا استطاع هيرودس أن يفهم من صمت المسيح ولعله لم يرد أن يفهم شيئاً. والدلائل تشير إلى أنه لم يفهم. إنه ظن هذا الصمت ضعفاً وظن أن السبب فى أن المسيح لم يصنع أمامه معجزة هو أن المسيح لم يستطع ذلك فاحتقر يسوع. وهكذا فعل أذنابه الذين يحيطون بكرسيه حين ألبسوا يسوع المسيح ثوباً لامعاً قبل أن يعودوا به مرة أخرى إلى بيلاطس. ودلالة الثوب اللامع واضحة إذ أن هذا هو لباس الرسميين فى

روما، ويسوع المسيح قال أنه ملك فليس أقل من أن يسخروا من ادعائه هذا.
وخرج يسوع يشيعونه بالاستهزاء ... ويا ضيعة الحق بين الأدعياء الأغبياء.

***

٣ ــ مرة أخرى أمام بيلاطس

كانت إحالة القضية إلى هيرودس بلا جدوى على خلاف ما كان يرجو بيلاطس، فعاد الحراس بأسيرهم مرة أخرى إلى القصر الامبراطورى.

ولقد حاول هيرودس أن يعامل يسوع المسيح باحتقار، ولكن الحقيقة كما عرفناها الآن هى أن هيرودس نفسه هو الذى حوكم وحكم عليه. وها هو يسوع يعود مرة أخرى ليفعل ذات الأمر مع بيلاطس ـ ليكشف له من أى روح هو. ولو أن بيلاطس نفسه لم يكن فى حسابه أن شيئاً من هذا سيحصل. إن بيلاطس تكدر لما رأى أن القضية التى ظن أنه تخلص منها قد عادت إليه مرة أخرى. وتعين عليه أن يعيد نظرها من جديد، وسار فيها حتى النهاية. كان هو نفسه قد انكشف فى نور المسيح، انكشفت صفاته وطباعه من أساسها.

كانت حياة هيرودس حياة متصلة من المجون الدنيوى، المجون الذى يجعل من الحياة كلها متعة طويلة مشكلة أو نشوة متواصلة مصنفة، لكن حياة بيلاطس كانت حياة دنيوية جادة مركزها الذات وهدفها الأوحد والأسمى هو النجاح فى هذه الدنيا، وكل شئ فى هذه الدنيا يُسخَّر لتحقيق هذا الهدف.

ومن الممكن أن نلتمس بعض العذر لبيلاطس لإرجائه اطلاق سراح يسوع المسيح بعد أن تيقن من براءته، فلعل بيلاطس أراد أن يحتفظ بقرار

الإفراج عنه إلى ما بعد رجوعه من أمام هيرودس وذلك لجهله بالناموس اليهودى والعوائد اليهودية التى تتعارض مع هذا القرار، لذلك قبل الفصل فى الدعوى أراد أن يقف على رأى خبير بهذه العوائد والتقاليد.

لكن لما عاد يسوع إليه مرة أخرى وعرف بيلاطس أن رأى هيرودس يتفق مع رأيه لم يعد هناك عذر له فى عدم إطلاق سراحه.

وفى صراحة ووضوح قال بيلاطس لليهود [٣] أنه فحص هذا الإنسان ولم يجد فيه علة مما يشتكون به عليه - وهذا هو نفس القرار الذى أرسل به يسوع إلى هيرودس - وقال لهم إنه لم يصنع شيئاً يستحق الموت. وكان المفروض بعد أن نطق بيلاطس بهذه الحيثيات أن يقول «فأنا أطلقه حراً وأكفل له الحماية إذا كان لابد من حمايته من طغيانكم» هذا هو الحكم الذى يتفق والعدالة والمنطق السليم، ولكنه نطق بعد هذه الحيثيات بحكم عجيب لما قال «فأنا أؤدبه وأطلقه». إنه أراد أن يصرف عجيجهم وهيجانهم بأن يجلده ثم يرضى العدالة بأن يطلقه.

كان هذا الاقتراح من جانب بيلاطس جائراً وغير عادل بالمرة لكنه اقتراح يدل على خصائص نفسية هذا الحاكم كما يدل على خصائص الحكومة التى يمثلها فإن روح الامبراطورية الرومانية كانت روح المساومة والممالأة والمناورات كروح بعض الحكومات الأخرى فى أى مكان وزمان،

---

(٣) عند رجوع يسوع المسيح من أمام هيرودس يبدو أن أعضاء السنهدريم لم يكونوا موجودين واستلزم الأمر أن يدعوهم بيلاطس وعلى الأرجح أنه استدعاهم من الهيكل.

وليس ذلك فى الدولة فقط بل فى الكنيسة أيضاً. وبيلاطس قد فصل فى عشرات القضايا على ذات المبدأ، أو بالحرى على لا مبدأ بالمرة. وعشرات من الحكام العسكريين فى أرجاء الامبراطورية الواسعة كانوا يصرفون شئون ولاياتهم بنفس الأسلوب فى ذلك الزمان. إلا أنه كان من حظ بيلاطس التعس أنه مارس هذا الأسلوب الوضيع فى قضية سلطت عليها أضواء التاريخ.

ومهما كان من أمر الضحايا غير المعروفين لنا فى جميع القضايا التى نظرها بيلاطس، فإننا بيقين راسخ نقول مطمئنين إن الروح التى عالج بها بيلاطس كل هذه القضايا كانت غير مرضية عند الله. وانظر مثلاً إلى مشهد دينونة الأحياء الذى رسمه ربنا يسوع وميز فيه بين موقف الخراف وموقف الجداء، فإنك تلاحظ أن كلا الفريقين دهشوا للحيثيات التى عليها بنى تقرير مصيرهم. فالذين على اليمين رجحت كفتهم لأنهم أطعموا المسيح لما كان جوعاناً وسقوه لما كان عطشاناً ...الخ، ومن جانبهم نراهم يسألون فى دهشة «يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك؟» وعلى نفس المنوال نجد الذين على اليسار قد خفت موازينهم لأنهم رأوا المسيح جواعاناً فلم يطعموه وعطشاناً فلم يسقوه ...الخ. وفى نفس الدهشة يسألون «يارب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟» وقد نظن أنهم يقولون ذلك لكى يُخفوا تعديات وتقصيرات هم يعرفونها ويشعرون بها ... كلا أبداً. إنهم فعلاً وحقيقة مندهشون. إنهم يظنون أن خطأ ما قد وقع فى شخصياتهم وأنهم يدانون على خطايا لم تقع منهم قط. إن كل ما يذكرونه أنهم قصّروا فعلاً فى حق بعض الأشخاص

الذين ظنوا أن لا اعتبار لهم ولا قيمة. لكن المسيح أجابهم قائلاً «إن كل واحد من هؤلاء الأصاغر يمثلني وعندما أهملتموه جرحتم شعوري أيضاً، وما فعلتموه بأحدهم فعلتموه أيضاً بي». نعم أيها القارئ إن الحياة ستتبرهن في النهاية، إنها أسمى وأعمق وأخطر مما تتصور الآن، فكن على حذر فيما أنت فاعل مع أخيك الإنسان. إنك قد تجرحه بزلة لسان أو غمزة عين وفي هذا تجرح قلب الله أيضاً. وقد تظلم طفلاً وفي النهاية تكتشف أنك قد جُرت على المسيح نفسه.

إن بيلاطس قد تخلى عن كل مبدأ عادل عندما أعلن أن يسوع المسيح برئ ومع ذلك أمر بتأديبه، وظن أنه سيمضي آمناً إلى الهدف الذي رسمه لنفسه، ولكننا سنرى كيف أنه فشل في النهاية وخابت أهدافه خيبة كبرى. وبينما هو في طريقه امتدت إليه أيدي لتخلصه من ورطته، وبعضها لتزيد من تورطه. لكن البداية الخاطئة جرفته في تيارها إلى مصير مشئوم.

وأول يد امتدت إليه كانت يد «مُحبة» - هي يد زوجته، فقد أرسلت إليه تخبره عن حلم تألمت فيه كثيراً من أجل هذا السجين الذي يحاكم أمامه وحذّرته إن هو فعل شيئاً «بذلك البار».

وقد قامت أمام البعض صعوبة حول كيف عرفت امرأة بيلاطس أمور يسوع المسيح. ولكن ليست هناك صعوبة ما فالأرجح أنه في الفترة التي ذهب فيها يسوع المسيح إلى هيرودس، دخل بيلاطس قصره وأخبر زوجته عن هذه القضية الفريدة في نوعها وعن التأثير الذي طبعه يسوع المسيح على ذهنه. ولما تركها استغرقت في نوم وحلمت حلمها، وجاء في النص الكتابي «لأني تألمت اليوم كثيراً (وليس الليلة) في حلم من أجله». لقد

اعتراها شعور غامض من الخوف بسبب ذلك الحلم وكانت النتيجة أنها بعثت إلى زوجها برسالتها.

وهذا الذى فعلته زوجة بيلاطس غدا عبر التاريخ مجالاً لاجتهاد الخيال المسيحى. فالتقليد سلّم إلينا أن زوجة بيلاطس كان اسمها كلوديا بروكيولا ويقال أنها كانت من الدخيلات على الديانة اليهودية (المتهودات من بين الأمم) والكنيسة اليونانية قالت عنها أنها أصبحت مسيحية، والشعراء والفنانون خلّدوا حلمها، ولم تزل حتى اليوم فى متحف لندن تلك اللوحة المعبرة التى تبدو فيها صاحبة ذلك الحلم تلقى نظراتها على أجيال الكنيسة الصاعدة إلى دوائر المجد، وإلى أقصى شمال اللوحة يتفجر النور من كوكب لامع على شكل صليب هو ذات الصليب الذى يبدو يسوع المسيح فى أقصى جنوبها حاملاً إياه فى إعياء وتعب شديدين.

طبعاً كل هذه خيالات. وكل مشغولية تلك الزوجة هى أن ضرراً ما يجب أن لايصيب ذلك البار. على أن رغبتها فى أن ترحم زوجها من فعلة آثمة إنما تضعها فى مصاف الزوجات النبيلات اللواتى وقفن كملائكة رحمة إلى جانب أزواجهن. ومن الصعب أن نشك فى أن يد الله كانت فى ذلك الحلم أو فى أنها امتدت نحو بيلاطس لتبعده عن مصير مظلم كان مسرعاً نحوه.

يد أخرى امتدت نحو بيلاطس وأسرع هو ليتشبث بها ظناً منه أنها قد تخرجه من مأزق وما درى أنها يد دفعت به إلى قرار الهاوية. إنها كانت يد السوقة والطبقات الدنيا فى أورشليم. ولغاية تلك اللحظة كان الظاهرون على مسرح محاكمة المسيح قليلى العدد نسبياً وكانت الرغبة الملحة عند رؤساء الكهنة هى أن يسرعوا بالقضية وينتهوا منها قبل أن يعرف بها شعب

أورشليم وجموع الوافدين إلى المدينة بمناسبة الفصح. من أجل ذلك استغرقت اجراءات المحاكمة كل الليل وعندما أُحيل يسوع المسيح إلى هيرودس كان الوقت أيضاً لم يزل مبكراً. ولاشك أن عدداً من الأهالي انضم إلى الموكب عند الذهاب إلى هيرودس وعند الرجوع إلى بيلاطس. والآن قد تزايد عدد المتجمهرين وأصبح مسرح المحاكمة مزدحماً بشعب كثير.

وكانت عادة الحاكم الروماني أن يطلق سجيناً في صبيحة يوم العيد وبالطبع كان هناك مسجونون سياسيون كثيرون ممن تمردوا على الحكم الروماني، وهؤلاء كانوا محبوبين عند الشعب لأنهم في نظر الناس أبطال في الوطنية. وبينما كانت محاكمة المسيح تجرى في الهواء الطلق إذا بجموع الشعب تتدفق وتهتف مطالبة بالهدية السنوية. ووجدت طلبتهم ترحيباً عند بيلاطس لأنه ظن أنه يتخلص من الحرج الذى هو فيه بأن يطلق لهم يسوع المسيح الذى منذ أيام قلائل رحبوا به في مهرجان شعبي كبير وهو داخل أورشليم، ولذلك أعتقد بأنه سيتجاوب مع الشعب إذا عرض عليهم أن يُطلق لهم يسوع الناصري.

وكان هذا من بيلاطس في منتهى الجور لأنه أولاً اعتبر أن محاكمة المسيح قد انتهت فعلاً بإدانته مع أن بيلاطس نفسه منذ لحظات أعلن براءته، وثانياً أنه علّق حياة شخص على مجرد حُسن ظن قد لايتوفر صداه عند الجماهير. وهو بدون شك كان يُحسن الظن بهذه الجماهير الأمر الذى طيّر الفرصة من يده فضاعت عليه إلى الأبد.

ولابد هنا من أن نشير إلى أن هذا الجمع المتجمهر في مشهد المحاكمة لم يكن هو الجمهور الذى جاء من الجليل منذ أيام قلائل في مظاهرة كبرى

يهتف للمسيّا الملك، بل كان ذلك الجمع المتجمهر هو حثالة تافهة من سكان أورشليم.

كان هذا الجمع المتجمهر مشغولاً بسجين اسمه «باراباس» وكان سجيناً مشهوراً أُتهم فى إحداث فتنة فى المدينة سقط فيها بعض القتلى فاعتقل وأودع السجن مع عصابته التى كان يرأسها.

فلما عرض بيلاطس على الجمهور أن يطلق لهم يسوع الناصرى انبرى رؤساء الكهنة يقاومون هذا العرض ويحرضون الشعب على رفضه. وبكل حيلة وخبث انبثوا وسط الجمع ليصنعوا هيجاناً ضد إطلاق يسوع المسيح وطلبوا أن يوهب لهم رجل قاتل هو باراباس.

ويعود بيلاطس ليضع أمام الشعب هذين الاثنين ويقول لهم «مَن مِن الاثنين تريدون أن أُطلق لكم؟» فكان صراخهم الخارج من ألوف الحناجر يطلب «باراباس».

وماذا كان يا ترى معنى هذا الطلب عند يسوع المسيح؟ أليس هؤلاء هم أهل أورشليم الذين طالما أراد أن يجمعهم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها؟ أهل أورشليم الذين طرقت مسامعهم كلماته وشاهدت عيونهم معجزاته وآياته؟ وكانوا هم موضوع محبته وعنايته؟ ماذا كان ياترى معنى هذا الطلب عنده لما سمعهم يفضلون عليه لصاً قاتلاً؟

يسوع الناصرى ... وباراباس، نقيضان متنافران. وطريقان أمام الاختيار البشرى. وما أبعد المسافة بينهما ! ذاك ثائر هدّام وهذا يقيم الرميم ويدعو الحياة من العدم. ذاك يمثل مسلك الطاقة البشرية وما يمكن

أن تعمله وهذا يمثل المبادئ السامية الكريمة. طريقان في الحياة أحدهما يبغي ملكوت الأكل والشرب والثاني يبغي ملكوت البر والسلام وفرح الروح القدس. وكل الناس من كل الأجناس في كل زمان يواجهون هذين الطريقين. كلٌ له هدف ارتضاه ،طريق اختاره من هذين الطريقين : يسوع أو باراباس.

كان اختيار باراباس صدمة لبيلاطس فسألهم قائلاً «ماذا أفعل بيسوع؟» ولعله توقع منهم أن يطلبوه هو الآخر وكان ممكناً أن يُطلق الاثنين لو أرادوا ولكن بدلاً من أن يطلبوا إطلاقه صرخوا قائلين «اصلبه اصلبه». هنا شعر بيلاطس أن الثغرة التي أرادها مهرباً له لم تكن إلا فخاً اقتنصه. وكان من الممكن له أن يرد عليهم كيدهم بأن يقول لهم إنه عرض عليهم الخيار لأن يُخلّصوا حياة واحد من الاثنين لا أن يُخَلّصوا واحدة ويحكموا على الأخرى ولكنه على أي حال وضع السجينين رهن تصرفهم أو على الأقل هذا ما فهمه الجمع المتجمهر ولم يستطع بيلاطس أن يقاومهم.

لقد تأثر بيلاطس جداً، ففعل شيئاً غير عادي أمامهم. لقد طلب مغسلاً به ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلاً «إني برئ من دم هذا البار. أبصروا أنتم». كانت هذه حركة لها تأثير ولكنها حركة تمثيلية من بيلاطس. إنه يغسل يديه في الوقت الذي كان ينبغي أن يرفعها بقوة في وجوه الظالمين. وهل الأيدي الملطخة بدم الأبرياء تُغسل بمثل هذه السهولة؟ إنه لم يستطع أن يتحمل السلطان فألقاها على كاهل الآخرين. وأمثال بيلاطس يتذرعون بأنهم ينحنون أمام قوة الرأي العام ومن ثم يغسلون أيديهم. لكن أصحاب المسئولية الذين تتطلب مراكزهم أن يتحملوا المسئولية إذا هم انحنوا أمام العمل الردئ، لصقت بهم نتائج أفعالهم ولن تنتقل عنهم. وعلى أية حال هذا

المشهد يصلح مرآة صافية أمام القضاة تريهم أى منحدر مظلم يتردون فيه إذا هم رضخوا للرأى العام كان ينبغى على بيلاطس أن يقاوم هذه الرغبة الشعبية ويرفض أن يصادق على أمر هو نفسه لم يقره لكن هذا المسلك المستقيم ربما كلفه مركزه وحياته أيضاً، وهذا هو السبب الحقيقى فى سكوته على الظلم.

وشعر الشعب أنهم قد انتصروا. ولما رأوا بيلاطس بصعوبة يتنصل من تبعة تسليم المسيح قالوا «دمه علينا وعلى أولادنا». كان بيلاطس يخاف هذا الذنب ولكنهم لم يخافوا. وليت السماء أظلمت من فوقهم عند هذه الكلمة وليت الأرض تزلزلت تحت أقدامهم، فما نطقوا كفراً أكفر من هذا الذى نطقوا به. لكنهم كانوا مسعورين فى ثورتهم يريدون أن يكسبوا القضية بكل إصرار وبأى شكل ... وترددت أصداء كلماتهم فى فضاء هذا الجزء من المدينة وظلت تتردد فترة ليست بطويلة إلى أن حلّت اللعنة التى طلبوها على مدينتهم وعلى جنسهم. وظفر شعب أورشليم وقادتها بمرغوبهم وتحطمت إرادة بيلاطس أمام إصرارهم وعنادهم.

***

٤ ـ إكليل الشوك

فشلت محاولات بيلاطس لكى يخلص يسوع المسيح من أيدى ظالميه ولم يجد أمامه باباً مفتوحاً إلا أن يسلم يسوع المسيح للجلادين.

ولسنا نميل هنا إلى إطالة الوقوف أمام آلام المسيح الجسمانية كما فعل غيرنا ممن كتبوا فى هذا الخصوص فصوروا التفاصيل بأسلوب مستفيض حتى لكأنك ترى الدم يتفجر من بين السطور وحتى يكاد الوصف المؤلم يذهب بعقل القارئ من هول ما يقرأ. لكننا هنا نريد أن نسدل ستاراً على هذه التفصيلات المفجعة ولا نكشف هذا الستار إلا بالقدر اللازم لكى نفهم حالة المسيح الذهنية فى وسط آلامه هذه والتى منها يمكننا أن نستطلع حقيقة هذه الآلام.

لقدتعرض جسد الرب يسوع لضربات وإهانات كثيرة قبل أن يتحمل أهوال الصليب الختامية. أول هذه الآلام كانت آلامه فى البستان، ثم اللطم على وجهه من واحد من عبيد رئيس الكهنة. وبعد أن حكموا عليه فى منتصف الليل «بصقوا فى وجهه ولكموه» وآخرون لطموه بأكفهم قائلين «تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك» وأخيراً جاءت هذه المرحلة من الآلام الجسمانية التى تعين عليه أن يحتملها. هذه المرحلة بدأت بجلده وقام بهذه العملية العسكر الرومان بأمر من سيدهم بيلاطس فى وقت انزوى فيه بيلاطس بعيداً عن المشهد، ولكن على مرأى من الجمع الكثير الموجود على مسرح

المحاكمة جُرد يسوع المسيح من ثيابه وأسند وجهه إلى أحد الأعمدة أو جعلوه ينحني على قائم قصير، مربوط اليدين حتى لايدفع عن نفسه الضربات. وكانت الأداة المستعملة في جلده عبارة عن سوط ذي تسع شعب وتنتهي شعبه بعقد من الحديد أو العظام. وكثيراً ما كانت الضحية المسكينة تقضي نحبها أثناء عملية الجلد. والبعض يظنون أن بيلاطس أمر بتخفيف الجلد سواء بتقليل عدد الجلدات أو بتخفيف شدتها، لكن إعياء المسيح وعدم قدرته على حمل الصليب إلى مكان التنفيذ كان يرجع أصلاً إلى استنفاد طاقة احتماله في عملية الجلد هذه، وهذا وحده يكفي دليلاً على شدة هذه الآلام.

وبعد الجلد أخذه العسكر إلى ثكناتهم في القصر وجمعوا عليه كل الكتيبة لتتسلى بمنظره. كان مركزه بينهم مركز محكوم عليه بالصلب، لذلك كان من حقهم أن يفعلوا به كما يحلو في أعينهم، تماماً كالمطارد الذي عندما يقبض عليه كان يلقى به بين أنياب الكلاب الجائعة. وهذا تشبيه في محله. وينبغي أن نلاحظ أن رجال الكتيبة الرومانية التي تجمعت على يسوع المسيح لتتسلى على آلامه وجراحه كانوا متعودين على سفك الدماء. وفي روما كانت تسليتهم في مشاهدة ملاعبها التي كان المتبارزون يثخن الواحد منهم الآخر بالجراح ليزيد من بهجة أعيادها.

كانت تسليتهم في تمثيل حفلة تتويج ساخرة، لأنهم في مشهد المحاكمة علموا أن التهمة الموجهة إلى يسوع المسيح هي أنه ملك. فليس أقل من أن يتوجوه بطريقتهم الخاصة. فألبسوه ثوب أرجوان ربما كان عباءة قديمة لأحد الضباط الرومان ذات لون أرجواني. ثم إن الملك ينبغي أن يكون له

تاج، لذلك أسرع واحد منهم إلى حديقة القصر وسلخ بعض القضبان الشائكة من إحدى الشجيرات وضفروها معاً على شكل تاج وغرسوها فى رأسه وجبهته، ثم لكى تكمل شخصية الملك ينبغى أن يمسك فى يده قضيباً فأتوا بقصبة ووضعوها فى يده اليمنى. وكما كانوا يرون فى المناسبات رعايا القيصر يأتون ويركعون أمامه قائلين «السلام لقيصر» هكذا هم أيضاً كانوا يأتون الواحد بعد الآخر ويركعون أمام المسيح قائلين «السلام يا ملك اليهود» وبعد أن يؤدى كل منهم هذه التحية فى تأدب مصطنع ينفجر ضاحكاً ويستدير ليضربه بقبضته أو بالقصبة التى فى يده ثم يغطون وجهه بالبصاق.

ياله من منظر مفجع !! كنا نتوقع من أولئك الذين هم أنفسهم فقراء وفى مراكز وضيعة وبالتالى عرضة لطغيان الأقوياء، أن يرثوا لمسكين مثلهم سحقته أقدام الاستبداد. لكن لا مثيل للأدنياء. إن فى الكل غريزة تميل إلى رؤية الآخرين مسحوقين من تحتهم خصوصاً إذا «كبير هان أو عزيز ذل». هناك شعور بالارتفاع عند سقوطه وشعور بالاستعلاء إزاء تصاغره. هذه هى الميول الدنيا النابعة من أعماق قلوب البشر. وفى هذه المناسبة أظهر الإنسان أعكر العكر من رواسب الطبيعة البشرية.

وماذا كان ياترى وقع كل هذا على شخصه المبارك؟ ماذا كان وقع كل هذا على جسده الرقيق وعلى ذهنه الحساس وهو يرى نفسه فى قبضة قساة أردياء؟ على أن كل هذا لابد منه لكى يتم العمل الذى من أجله جاء إلى هذا العالم. إنه قد جاء ليفدى الجنس البشرى الساقط، لكى ينزل إلى قرار الأعماق ليطلب ويخلص ما قد هلك. ولأجل ذلك كان ينبغى أن يكشف النقاب

عن الطبيعة البشرية فى أسوأ صورها وفى أحط دركاتها. كان ينبغى أن يكون مخلص الخطاة الذين فى تسفلهم وصلوا إلى ما وصل إليه أولئك العسكر. كان ينبغي أن يحتك بهم ليعلن عن حقيقتهم.

وإلى هنا نكون قد مررنا مروراً سريعاً على التفصيلات، ولكن قد يكون من المفيد أن نقف قليلاً لنلقى نظرة أخيرة على هذا المشهد لكى نستخلص عبرته ونتعلم دروسه.

فأولا : نلاحظ فى مسلك أولئك الطغاة أنهم حولوا كل شئ إلى مادة السخرية وجعلوا من كل شئ أضحوكة، وقادهم الضحك إلى أعمالهم غير الإنسانية وحجب عن أعينهم حقيقة ما كانوا يفعلون وأصاب من نفس يسوع المسيح مواطن لم يصبها سوط بيلاطس.

وثانياً : نلاحظ أن مقاومة يسوع المسيح فى تلك المناسبة أخذت شكل التهكم على مركزه الملكى. لقد قاوموه فى مرة سابقة كنبى عندما عصبوا عينيه وضربوه قائلين تنبأ من ضربك. وهنا نراهم يحقرون من شأن قوله أنه ملك. ففى نظرهم اعتبروها جهالة مضحكة أن يدعّى شخص نبذته أمته، وتخلى عنه الأصدقاء بلا حول ولا قوة، أنه ملك.

أما الاعتراف الأهم والأكثر أهمية بالنسبة للمؤمن المسيحى فهو الاعتراف بالمسيح كملك وسيد فى الحياة الخاصة الفردية. الجسد يقاوم سلطان المسيح فينا لكن النصرة الحقيقية هى فى وضع كل شئ، أعمالنا وأوقات فراغنا، ومواردنا وخدماتنا لمقتضيات خدمة هذا السيد الملك.

ثالثاً : نلاحظ أن ما تحمّله وما قاساه ربنا يسوع فى تلك المناسبة كان

لأجلنا. فإن من بين كل هذه المناظر المؤلمة لا نجد منظراً أكثر إيلاماً وتأثيراً من إكليل الشوك. كان هذا الأمر جديداً غير مألوف من قبل، وقد نبعت فكرته من حضيض القسوة والظلم.

كلنا نعرف وخز الشوك. ومعرفتنا هذه تُقرِّب إلينا آلام السيد الرب فى هذه المناسبة أكثر من أية مناسبة أخرى، لكن وقع هذه الوخزات لم يكن هو الذى يستحوذ على الذهن المسيحى كلما تصور إكليل الشوك بل معناها. فإن آدم وحواء عندما طردا من الجنة إلى هذا العالم المظلم كان من نصيبهما أن تُنتج الأرض لهما شوكاً وحسكاً. والشوك والحسك علامة اللعنة - علامة الطرد من محضر الله وعلامة كل ما يترتب على هذا الطرد من حزن وبؤس وحرمان. أوليست الشوكة وهى تكمن خلف الورقة أو الزهرة على استعداد لأن تمزق اليد التى تمتد أو ثوب من يقترب؟، نقول هذه الشوكة ألا تمثل هذا الجانب المتعب المؤلم والمضنى من هذه الحياة المليئة بنتائج الخطية بصورة أو بأخرى؟ إنها تمثل وجه الاهتمام والضيق والآلام والمرض والموت، وبالاختصار هى تشير إلى اللعنة. غير أن رسالة المسيح فى هذه الحياة هى احتمال هذه اللعنة. ولما تحملّها على رأسه الكريم رفعها عنا - هو حمل خطايانا وتحمّل أوجاعنا وآلامنا.

لقد فعل العسكر الرومان فى جهلهم وشرهم فعلاً له مطابقة رمزية دقيقة مع أفكار الله، وكانت الحكمة الإلهية تخرج من أخطائهم ما يتمم مقاصدها. ولم يزل إكليل الشوك الذى وضع على رأس الفادى بقصد تحقيره، أغلى قلادة كريمة. أكرم حلية توجت بها طاعته.

رابعاً : نجد فى إكليل الشوك درس الصبر فى الآلام. وقديسون كثيرون

احتملوا بصبر قسوة المرض والألم لأنهم علقوا أبصارهم وشغلوا أذهانهم بصبر المسيح على وخزات الشوك.

وآخرون استهانوا بالتعييرات أو المخاطر واستخفوا بالخسائر المادية أو التضحيات الجسمانية فى سبيل إيمانهم المسيحى لأنهم رأوا فى سيدهم المتألم مثالاً لهم.

وإذا كان إكليل الشوك على جبين المسيح هو إكليل العار فى أعين الناس فلنثق أن كل شوكة يُقسَم لنا أن نتحملها، لابد ستبدو فى يوم من الأيام زينة مجيدة على رؤوسنا.

***

٥ ـ تحطيم بيلاطس

لقد وقفنا طويلاً أمام كرسي بيلاطس، وبيلاطس هو الذى قيد حركتنا. كان بيلاطس يعرف تماماً منذ النظرة الأولى التى مر بها على القضية، واجبة إزاءها ولكنه بدلاً من أن يتصرف وفق اقتناعه، نراه يتراخى ويتباطأ. ولاخير يمكن أن يرجى من وراء مثل هذا التباطؤ. لقد أعطى بيلاطس الفرصة للتجربة لكى تهاجمه. صحيح أنه قاومها وحاربها كثيراً وبقوة، لكنه كان ينبغى أن لا يعطيعها أية فرصة. وفى النهاية ركع المسكين مدحوراً.

لما أمر بيلاطس بأن يجلد يسوع بدا الأمر كما لو كان بيلاطس رضى بتسليمه للصلب. هذا على الأرجح هو الفكر الذى اعتقده اليهود لأن الجلد كان هو المقدمة العادية الطبيعية للصلب. لكن مع ذلك لم يفقد بيلاطس الأمل فى إنقاذ يسوع المسيح. كان لم يزل يتشبث الاقتراح الذى اقترحه على اليهود وهو أن «يؤدبه ويطلقه». وربما يكون قد دخل إلى القصر فى الفترة التى فيها كان يسوع يجلد، وربما ألحّت عليه امرأته أن يحاول محاولة أخيرة لمصلحة هذا الإنسان البار.

وعلى أية حال خرج بيلاطس إلى المنصة وأعلن لليهود الملتفين حولها أن القضية مازالت منظورة. وفى تلك اللحظة كان يسوع قد عاد بعد أن انتهى جلده فالتفت إليه بيلاطس وأشار إليه قائلاً ـ وكانت كلمات خارجة من أعماق إحساسه ـ «هوذا الإنسان» !!

«هوذا الإنسان» !! عبارة خرجت عفواً من فم بيلاطس فيها كل معانى الاشفاق والاعجاب أيضاً.

عبارة فيها نداء التعقل يخاطب بها اليهود أن يكفوا عن التمادى فى غيهم وتحاملهم لأن يسوع لم يكن هو الشخص الذى أرادوه أن يكون، ومع ذلك فقد تحمّل وتألم كثيراً.

لكن الذهن المسيحى يستشعر فى كلمات بيلاطس معانى أعمق بكثير مما قصد. ومع أن قيافا نطق بحق أعظم جداً مما يعرف عندما قال أنه «خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب» هكذا هذا النطق الخارج من فم الحاكم الرومانى كان أشبه بنبوة لم يفهمها المتنبئ بها. وعلى مر الأجيال لم يزل المبشرون يشيرون إلى هذه العبارة ويعلقون عليها. ولم تزل اللوحات الفنية التى تصور المسيح وهو بين أيدى جلاديه وعليه ثوب الأرجوان وإكليل الشوك كرجل الأحزان تحمل كعنوان لها عبارة «هوذا الإنسان» !

ومن فم بيلاطس تساقطت كلمتان لن يطويهما النسيان هما ذلك السؤال «ما هو الحق؟»، وهذا التعجب «هوذا الإنسان !!» والواحد ينفع جواباً للآخر. فإننا عندما نستقصى باجتهاد سؤال بيلاطس عما هو الحق، نجده لايخرج عن كونه سؤالاً عن «من يجعل الله معروفاً لنا؟» أو «من يزيح الغموض عن سر هذا الوجود؟» أو «من يعلن للإنسان مصيره؟» وهل من جواب على جميع هذه الأسئلة سوى «هوذا الإنسان !!» إنه أورى لبنى البشر ما ينبغى أن يكونوا عليه. كانت حياته هى الكاملة، وعلى منوالها ينبغى أن تتشكل حياة كل بشر. إنه فتح أبواب الأبدية والخلود وأعلن أسرار العالم الآخر. إنه لم يعلن لنا عن الكمال فقط بل أيضاً أعطانا كيف يمكن أن

نصل إلى الحياة الكاملة. فهو ليس فقط رسم جوهر الكمال بل أيضاً المخلص من الخطية. ومن هنا كان ينبغى أن تلتفت إليه كل العالمين وتقول «هوذا الإنسان !!».

كان بيلاطس يرجو أن يؤثر منظر يسوع المتألم فى قلوب مضطهديه كما أثر فى قلبه لكن كان الجواب على طلبه «اصلبه اصلبه» ونلاحظ أن هذه الكلمات الآن نطق بها رؤساء الكهنة ورؤساء الجند. إن البعض من الشعوب تفرقوا وكان يمكن للبعض الآخر أن يرضخوا لو أن رؤساءهم سمحوا بذلك. ولكن كانت قلوب رؤساء الكهنة أصلب من أن تلين. كان منظر الدماء يزيد عداوتهم اشعالاً. وشعروا أنهم بشئ من الصلابة والعناد يمكنهم أن يكسروا إرادة بيلاطس.

استنفذ بيلاطس كل حيلة له فقال لهم غاضباً «خذوه أنتم واصلبوه لأنى لست أجد فيه علة» ومعنى كلامه أنه مستعد أن يسلم هذا السجين لإرادتهم لو أنهم تحملوا مسئولية قتله. هذا هو أقرب المعانى التى قصد بيلاطس إن كان يقصد أى معنى على الإطلاق وليس مجرد كلمات يهدر بها فى غيظه وحيرته.

وهنا وجدوا الفرصة قد سنحت فكشفوا عن حقيقة السبب الذى من أجله حكموا عليه وقالوا «لنا ناموس وبحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله» هذا هو أساس اتهام يسوع المسيح مع أنهم حتى هذه اللحظة أخفوا هذا الأساس. إنهم لم يذكروا شيئاً عن هذا السبب لأنهم ظنوا أن بيلاطس قد يحملق فيهم ويطيل الفحص حول هذا الادعاء. لقد كان بيلاطس قلقاً من أول الصبح وكلما رأى يسوع كلما كره الدور الذى يقوم به

فى القضية والآن إذ قد سمع ما يقوله يسوع بأنه ابن الله بدأت مخاوفه تتشكل فى صورة مرهبة. لقد استيقظ فى ذهنه ذكرياته عن الأساطير الرومانية الوثيقة وما حوت من أخبار الآلهة وأبناء الآلهة وظهوراتهم على الأرض أحياناً وكيف تتزل اللعنة بكل من يؤذيهم بصورة أو بأخرى. من هنا ازداد خوف بيلاطس (يو ١٩:٨) فدخل مرة أخرى إلى دار الولاية وقال ليسوع «من أين أنت؟» أما يسوع فلم يجبه ولاذ بصمت جليل - ذلك الصمت الذى تميزت به مراحل آلامه. ولماذا لم يجب يسوع المسيح على سؤال بيلاطس؟ إن التفسير بسيط وهو أن يسوع المسيح لم يرد أن تكون براءته على أساس الإجابة بأنه ابن الله بل كان يريد أن تكون براءته كإنسان على أساس بطلان التهم الموجهة إليه. تلك البراءة التى قررها بيلاطس أكثر من مرة.

لقد تضايق بيلاطس من عدم الإجابة فقال ليسوع «أما تكلمنى؟ ألست تعلم أن لى سلطاناً أن أطلقك؟» مسكين الإنسان ! وقبل أن تمضى دقائق ظهر مقدار ما كان لبيلاطس من سلطان. وما هو ذلك السلطان الذى افتخر به بيلاطس. إنه كان يتكلم كما لو كان حراً يحكم كيف شاء ويقضى بما يحلو له. وكل قاض عادل ينفر من ادعاء مثل هذا. إن العدالة تسلبه كل تحيز إلى جانب ميوله الشخصية. هذا ما ذكره به يسوع المسيح عندما فتح شفتيه ليقول لهذا المسكين «لم يكن لك علىّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» إنه يُذكّره بأن السلطان الذى يتقلده إنما فُوض إليه من السماء ولذلك ينبغى أن لا يستخدمه وفق هواه بل وفق ما تمليه العدالة. ثم أضاف قائلاً «لذلك الذى أسلمنى إليك له خطية أعظم» لقد أقر يسوع المسيح

أن بيلاطس كان مرغماً على نظر هذه القضية وأنه لم يحشر نفسه فيها كما فعل رؤساء اليهود.

وهكذا كان يسوع يعرف أية صعوبات كانت بمركز هذا القاضي والتمس له بعض العذر. فهل رأيتم قط مثل هذا النبل الجليل؟ وهل يمكن أن يكون هناك مثل هذا الانتصار على التذمر والضيق؟ ولئن كان صمت يسوع المسيح جليلاً وعظيماً فكلامه عندما يفتح شفتيه أجلّ وأعظم.

خرج بيلاطس إلى الجمع وهو يحس بعظمة هذا السجين وكمال نبله، وتقدم إليهم مصمماً على أن يطلقه حراً بأية وسيلة، ورأى اليهود ذلك في قسمات وجهه، فشهروا في مواجهته آخر أسلحتهم الذى ادخروه في جعبتهم، لقد هددوا برفع شكواهم إلى الامبراطور لأن هذا هو معنى قولهم «إن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر».

ولايوجد شئ يخشاه أى حاكم روماني أكثر من شكوى تقدم ضده إلى روما. وشكوى مثل هذه ضد بيلاطس كانت ستكون - لأسباب أخرى كثيرة - خطيرة بالنسبة له.

كان على عرش روما في ذلك الحين عاهل يرتاب في كل شئ هو طيباريوس. وكان ذلك الامبراطور يجد لذة في تحقير وإهانة مرؤوسيه من حكام الولايات وبالأخص في تلك الفترة من الزمان فقد كان مريضاً يحمل في جسده عقوبة آثامه التى اقترفها وكان وجدانه سقيماً وطبعه شرساً وفي الواقع كان طيباريوس لايزيد إلا قليلاً عن رجل مجنون. كان قاسياً مرتاباً ورديء الخلق. ولم تكن هناك تهمة تُنسب إلى واحد من رعاياه وتشعل غضبه أكثر من تلك التهمة التي زعموا أن يرموا بيلاطس بها. كان معروفاً في روما

فى ذلك الحين أن الشرق يموج بعقيدة انتظار مسيّا، وكل والٍ أو حاكم يُعرف عنه تساهله أو عطفه على كل من يدّعى أنه مسيّا كان يستدعى إلى روما ليلقى حتفه أو نفيه.

كما أن تاريخ بيلاطس لم يكن ليساعده على الدفاع عن نفسه إذا قدمت ضده مثل تلك الشكوى. وقد ذكر واحد من المؤرخين أن بيلاطس «كان يخشى، إذا سافرت بعثة يهودية إلى روما، أن تثار مساوئ حكمه الكثيرة ومظالمه وقوانينه الجائرة وقسوة أحكامه»، هكذا كانت سيرة بيلاطس الماضية. فلما أراد أن يصنع شيئاً واحداً عادلاً وإنسانياً غلّت يده. وليس هناك ما يغل يد الإحسان ويجمد النوايا الطيبة ويشل العاطفة النبيلة مثل ثقل الخطايا السالفة. فى بعض المجتمعات يتعذر على المرء أن يعبر عن المعانى الأدبية السامية لأن هناك بين الموجودين فيها من يعرفون عن حياة المتكلم ما يناقض أقواله. نعم ما الذى يبدد الفكرة النبيلة عندما تنبت فى أذهاننا؟ وما الذى يقتل الكلمة الجميلة على شفاهنا؟ وما الذى يشل الجهد فيما نعمل؟ أليس هو الهمس الخافت الصاعد من أعماق دواخلنا؟ أذكر كم مرة فشلت وكيف فشلت. هذه هى لعنة الخطايا السالفة. إنها لا تدعنا نصنع الخير الذى نريده.

لكن ماذا يفعل امرؤ يصرخ من حوله ماضيه الشرير؟ ماذا كان ينبغى على بيلاطس أن يفعله؟ هناك سبيل واحد هو أن يستجمع عناصر رجولته ويتحدى النتائج ويمضى فى طريق الاستقامة مهما كانت العواقب. وما هى إلا خطوة واحدة فى طريق الضمير الصالح، وما هى إلا كلمة واحدة تنطق بالاعتراف الحسن، وإذا بالأسير ينطلق حراً.

ولكن للأسف لم يكن بيلاطس كفواً لكل هذا. لم يكن على استعداد أن يواجه شكوى تقام فى روما، وأن يتحمل الحرمان أو النفى من أجل ذلك الجليلى النبيل الوجدان، البرئ، المتروك بلا رفيق. إن رجلاً له روح العالم وفلسفة العالم لايمكنه أن يرقى إلى مدارج راقية كهذه. إنه من العالم، يتغذى ويرتوى من مباهجه وملاهيه، ويملأ جوانحه فى شهيقه وزفيره من كبريائه وغروره، فلما سمع التهديد من جانب رعاياه انحنى مستسلماً قليل الحول صغير النفس. وانتصرت كبرياء اليهود واشتد عود عنادهم وارغموا الحاكم المسكين على أن يرضخ لإرادتهم الشريرة. ولم تكن أسباب سقوطه غريبة عنه. إنها كانت فى داخله ـ فى صفاته الضعيفة وفى شهواته العالمية. وقضية يسوع المسيح كشفت هذه الأسباب من أصولها وجذورها.

كانت لم تزل أمام بيلاطس خطوة يخطوها. كان قلبه مثقلاً وذهنه مشحوناً بالغضب. لقد أوجعوه وأذلوه وكان يريد الفرصة التى فيها يرد الذل على أعدائه لو استطاع فجلس على كرسى الولاية «فى موضع يقال له البلاط وبالعبرانية جباثا» وأشار إلى يسوع المسيح وقال لليهود «هوذا ملككم» وكأنه يقول لهم إنه يعتقد حقاً أن هذا هو مسياهم ـ هذا المسكين الذى يقطر دماً والمُهان فى عيونهم. كان بيلاطس يريد أن يطعنهم بأى سلاح. وهم من جانبهم صرخوا «خذه خذه اصلبه» فقال لهم «أأصلب ملككم؟» فاشتد صراخهم وقالوا «ليس لنا ملك إلا قيصر» ويالها من عبارة تصدر عن ممثلى الأمة التى لها «التبنى والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد». كانت كلماتهم هذه رفضاً لحقوق بنويتهم وتركاً لمواعيدهم. وبيلاطس عرف جيداً أى ثمن تكلفوه عندما طرحوا رجاء آبائهم وأقروا بحقوق لمستعبدهم ولكنه

أجبرهم على أن يجرعوا هذه الجرعة المرة تعويضاً عن تلك الكأس التى أجبروه على أن يشرب عكر الهوان من قرارها. وتلقف اعترافهم وصادق عليه.

***

٦ ـ يهوذا الاسخريوطى

لمحاكمة ربنا يسوع المدنية تتمة محزنة، كما قد رأينا مثيلة لها فى ختام المحاكمة الدينية. فلقد جاء فى أعقاب اعتراف المسيح العظيم فى قصر رئيس الكهنة، ذلك الانكار الذى صدر عن بطرس فى الساحة الخارجية. واجراءات المحاكمة فى قصر بيلاطس البنطى انتهت بالفصل الأخير من خيانة يهوذا. غير أننا فى هذه الحالة الأخيرة لانستطيع أن نحدد بالضبط والدقة ظروف الزمن والمكان.

يهوذا واحد من أسود الألغاز فى تاريخ البشرية. ودانتى فى تصويره الشعرى فى «الكوميديا الإلهية» [١] بعد أن عبر دوائر الويل ومهاوى التعاسة التى يقع فيها كل صنف من الأشرار كل على حدة ليذوق كل منهم عقابه وعذابه، وصل أخيراً إلى قرار الهوة السحيقة حيث وجد أشر الخطاة الذين ارتكبوا أحط الخطايا وأدناها يجرعون أشد كؤوس الشقاء مرارة. إنه يصور تلك الهوة السحيقة ليس فى صورة بحيرة من نار بل بحيرة ثلجية ترى من تحت سطحها الشفاف، وفى أوضاع أليمة، صورة أولئك الذين خانوا من

---

(١) أو «جحيم دانتى» وهو أروع تصوير ذهب إليه خيال شاعر العصور الوسطى الكبير «دانتى» وفيه اجتاز هذا الشاعر الواسع الخيال دوائر الوجود وعبرها إلى دوائر الخلود ليحدثنا عن أهل الشر فى جحيمهم المقيم. (المعرب).

استأمنوهم وأساءوا إلى من أحسنوا إليهم، لأن هذه الخطية فى نظر دانتى أثقل الخطايا كافة. وفى وسط أولئك التعساء يبرز بشعاً وكئيباً «ملك أهوال الويل والألم» .. الشيطان نفسه، لأن هذه الخطية هى التى أفقدته بهاءه وفردوسه، ومن بعده مباشرة يظهر جلياً يهوذا الاسخريوطى يتلوى فى فم الشيطان وعظامه تتحطم بدوى وقرقعة من بين أنيابه الرهيبة. هكذا كانت صورة هذا الإنسان وجريمته فى خيال العصور الوسطى.

أما فى العصر الحديث فقد جنحت الأفكار جنوحاً شديداً حتى صارت على نقيض ما كانت عليه قبلاً. فى هذه الأيام يقلل من شأن الخطية ويتهاون فى الحكم على الشر. ورجال ونساء ظلوا القرون الطويلة مصلوبين على خشبات التاريخ، أُنزلوا لإعادة النظر فى قضاياهم من جديد، وبعضهم أُقيموا على قواعد من الإعجاب والإكبار. قالوا إن أحداً من الناس لايمكن أن يكون رديئاً على طول الخط. والمجرمون والغادرون ليسوا سوى أناس أسئ فهم دوافعهم. ومن بين هؤلاء الذين بذلت المحاولات لانصافهم من حكم التاريخ، يهوذا الاسخريوطى. إن ثمانية عشر قرناً ظلت ترمقه بنظرات الاحتقار، وتعتبره أحقر الأدنياء كافة بين الناس. ولكن فى أيامنا الحاضرة بدأت النظرة إليه تستغرق فى تفكير جديد، حتى استحال يهوذا أمام بعض أصحاب النظريات الحديثة بطلاً من الأبطال. هذه النظرية ألمانية الأصل إلى أن جاء كاتب انجليزى «ديكنز» وأضفى عليها لوناً جذاباً من تصويره ومنطقه وعبقريته.

قالوا أن الدافع الذى كان يحرك يهوذا كان يختلف كل الاختلاف عما يعتقده الناس فيه إلى هذا اليوم. إن هذا الدافع لم يكن هو الربح الحرام.

إن ضآلة المبلغ (الثلاثين من الفضة) الذى باع به سيده تدل على أنه لابد أن هناك سبباً آخر غير الربح الحرام. وهذا الاعتقاد التقليدى لايتفق مع اختيار المسيح له ليكون تلميذاً له كما لا يتفق على الإطلاق مع ندامته المفجعة.

ولاشك أن نظرة يهوذا إلى دعوة يسوع المسيح كانت نظرة مادية. إنه كان يعتقد ويتوقع أن المسيح يملك وأن يتبوأ هو فى ملكوته مركزاً رفيعاً. وهكذا كان يفكر جميع التلاميذ الذين حتى آخر لحظة كانوا يتوقعون أن يخلع سيدهم رداء التواضع ويتسربل بقوته وسلطانه ويملك. إنما هم تركوا لسيدهم اختيار الأسلوب وتحديد الزمان لبدء الملك. ولم يكن أحد منهم يجرؤ على انتقاد خطته التى اختار أن يسلكها. أما يهوذا فلم يكن صبوراً كالباقين. كان رجلاً كثير الحركة وواقعياً وسمح لنفسه أن يعتقد أنه يرى نقطة ضعف فى مسك سيده. إنه رأى فى سيده روحانية أكثر من اللازم لاتنسجم مع مشروعه الذى بدأ الدعوة له. رأى أن سيده مشغول كثيراً بشفاء المرضى والكرازة والتعليم. ورأى أن هذه كلها تكون فى محلها ويمكن إجراء أضعاف أضعافها إذا ما قام الملكوت وتثبتت دعائمه. لقد رأى أن سيده يترك الفرص تفلت منه وتباطؤه أعطى الفرصة للرؤساء أن يتكتلوا ضده. وصحيح أنه لم تزل إلى جانب سيده قوة باقية عظمى هى قوة حماس الشعب ومع ذلك فإن سيده لايريد أن يستخدم هذه القوة. وفى يوم دخوله أورشليم وسط الشعب المتحمس الذى نادى به مسيحاً ملكاً ظن يهوذا أن يسوع المسيح قد واتته الفرصة وقبض بيده على زمام الأمر، لكنه لم يفعل شيئاً، وتفرق الجمع، حيارى، يائسين.

رأى يهوذا أن ما يحتاج إليه سيده هو أن يُدفع إلى مأزق يكون فيه أمام

الأمر الواقع ويضطر لأن يعمل. رأى سيده تعوزه الحركة وسرعة البت في الأمر فإذا ما دفع به إلى أيدى الرؤساء، الذين كانوا يطلبون فرصة لقتله، سيكون طبيعياً أنه يحاول تخليص نفسه وتستعرض حينذاك قوة إعجازه بشكل يصعب معه مقاومتها وتدفع الحماس الشعبى دفعة هائلة.

وهكذا يقوم الملكوت بقوة ويكون يومئذ أن الرجل الذى يسر الملك بأن يكرمه هو بكل تأكيد ذلك التلميذ المتواضع الذى بدهائه وجرأته برزت الأزمة التى تمخضت عن الملكوت.

وحتى لو كان هذا هو تاريخ يهوذا حقيقة، فإن مسلكه بين التلاميذ يبدو خلواً من هذه البراءة. لقد قابل ربنا يسوع فى إبان حياته أشخاصاً حاولوا (مدفوعين فى ذلك ببواعث صالحة) أن يتدخلوا فى خط سيره - حاولوا أن يدفعوه إلى العمل قبل الوقت أو حاولوا أن يمنعوه عندما حانت ساعة العمل. والرب فى الحالين نهرهم ورفض أفكارهم. حتى أمه لم تستثن عندما تدخلت فى أموره التى تخصه وحده. لقد كان المبدأ المتأصل العميق فى حياة يسوع المسيح هو أن يفعل إرادة الله بالضبط لا أكثر ولا أقل لا متعجلاً إياها ولا متثاقلاً من خلفها. وكان يعتبر كل تداخل من الناس كأنه مشورة من الشرير.

كذلك أيضاً ظاهر فساد هذه النظرية وعدم صحتها من أن الكتاب المقدس لايشير إلى شئ من هذا على الإطلاق بل إن هذه النظرية لا تتفق إطلاقاً مع النغمة التى يتكلم بها الكتاب المقدس عن يهوذا، نغمة الاستنكار لفعلته. بل إن الكتاب المقدس يُلمح عن دوافع عند يهوذا عكس تلك التى تستند إليها هذه النظرية. إن الكتاب يقرر أن يهوذا كان سارقاً وكان

يختلس من الصندوق الذى منه كان الرب يسوع يعطى الفقراء. واختلاس المحرمات قد يترفع عنه كثير من اللصوص. ويتفق مع قول الكتاب أسلوب كلامه مع أعضاء السنهدريم عندما ذهب إليهم وقال لهم «ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه إليكم»، واستعداده لأن يقبل ثلاثين من الفضة (حوالى أربعة جنيهات) دليل على شدة تعلقه بمحبة المال.

ومستحيل أن تقترن صفات كهذه بدوافع نبيلة (ولو كانت مشوبة بحماس فى غير محله) كالتى تفترضها تلك النظرية.

ولاجدال أنه جاء وقت فى حياة يهوذا كان الأمل يشرق فى أفقها. والرب يسوع ما كان ليختاره بين تلاميذه، وهو الحريص فى اختيار الأوفياء منهم، لولا ما ظهر منه من حماس نحو شخصه ونحو دعوته. وطبعاً عرف الرب جيداً أن دوافعه ممزوجة بمصلحة شخصية، لكن هذه كانت الحال مع جميع التلاميذ وكانت الشركة مع الرب هى النار التى امتحنت هذه الدوافع وهذا الحماس.

عند باقى التلاميذ نجد أن دوافعهم ودواخلهم تهذبت من عشرتهم للرب. صحيح ظلت ميولهم العالمية حتى نهاية حياة الرب على الأرض لكنها كانت تتدرج إلى التناقص بينما آمال أقوى وانتظارات أفضل من مجدهم الأرضى كانت تربطهم بدعوة الرب وتلصقهم به. أما عند يهوذا فعلى العكس، ما كان صالحاً وحسناً فيه تدرج إلى التناقض وفى النهاية كان الرباط الوحيد الذى يربطه بسيده هو ماكان يرجو أن يحققه من مكسب من وراء ارتباطه به.

ولما داخل يهوذا الشك لأول مرة فى أن ملكوت المسيا قد لا يتحقق، طرأ على حالته الداخلية تغيير خطير. حدث ذلك قبل ختام حياة المسيح بحوالى

سنة عندما رفض الرب محاولة تلاميذه وأتباعه أن يأخذوه وينصبوه ملكاً وعندما رجع كثير من تلاميذه عن أن يتبعوه، فى ذلك الوقت قال الرب كلمة تحذير صارمة سمعها يهوذا ضد الروح الشريرة التى سمح يهوذا أن تستحوذ على ذهنه، فى ذلك الوقت قال الرب لتلاميذه «أليس أنى أنا اخترتكم الاثنى عشر وواحد منكم شيطان» (يو ٦: ٧٠) ـ قال هذا عن يهوذا لكنه لم يفهم التحذير. وربما فى ذلك الوقت ابتدأ يهوذا يسرق من الصندوق ولعله افتكر أن هذا أقل تعويض له عن آماله التى تبددت.

من ذلك التاريخ ابتدأت أخلاقه تتدهور بسرعة. ويهوذا عرف أن يسوع المسيح يعرف عنه كل شئ، وبينما كان بقية التلاميذ يزدادون التصاقاً بالرب وشعوراً بفضله عليهم كان هو يزداد فتوراً. وعلى العكس كان يشعر أن المسيح وتلاميذه قد خانوه فى آماله وطموحه فلماذا لا يخونهم؟ إنه يخون سيده حتى ولو قبض فى سبيل ذلك ثمناً بخساً.

وأكثر من واحد من البشيرين يربط بين خيانة يهوذا وبين المشهد الذى جرى فى بيت عنيا عندما سكبت مريم الطيب الكثير الثمن على جسد الرب. وحسب الظاهر كان ذلك الفعل الجميل سبباً فى غليان الشر فى قلب يهوذا لدرجة لا تحتمل تأخير انفجار هذا الشر. ولقد وجد هذا الشر متنفساً فيما قاله عن ثمن هذا الطيب الذى كان ممكناً أن يُعطَى للفقراء. كان الثمن كبيراً وكان يمكن أن تكون له فرصة استقطاع جزء كبير منه لو وضع فى الصندوق. بل إن هذا الثمن الكثير المدفوع فى الطيب، والمال المثير الذى أنفق فى إعداد عشاء للرب يسوع فى وقت لاحت فيه نهايته واقتربت فيه ساعته كان فى نظر يهوذا حماقة بالغة. إنه كرجل عملى احتقر كل هذا

واعتبره «إتلافاً». وهكذا كانت أحقاد قلب يهوذا تستمد ثورتها من منابع قوية. هذا إلى جانب القول بأن الطمع ذاته هو من أقوى الدوافع - «محبة المال أصل لكل الشرور». محبة المال هي التي كثيراً ما وضعت الخنجر في يد القاتل. محبة المال في كل زمان ومكان حولت سوق الأخذ والعطاء بين الناس إلى ساحات تروج فيها الأكاذيب والضلالات والنفاق والخداع والمحاربات غير الشريفة. محبة المال جعلت الأجساد والقلوب تباع وتشترى بالذهب والفضة - لماذا من جيل إلى جيل تستشرى آثام عارمة؟ لماذا تتعالى أمواج صاخبة من الخطايا والدناءات يقع غرمها الباهظ على المجتمع؟ السبب هو أن من وراء كل ذلك المال وبريقه ورنينه. إن لمحبة المال والطمع قوة دافعة جبارة. ولكن إذا ما تذكرنا أن هذه كانت خطية يهوذا فربما الذكرى تحفظنا منها وتدفعها عنا.

إن ندامة يهوذا، في نظر البعض، اعتبرت علامة تنم عن روح عالية. ولاشك أنها علامة عن صلاح كان مرة عند يهوذا لأنه على ضوء بصيص من جذوة صالحة يمكن أن تُرى بشاعة الخطية. وكلما استنار الضمير كلما اشتد رد الفعل عندما يستيقظ. وأولئك الذين ذاقوا طعم الشركة مع جماعة المسيح لايمكن أن يكونوا فيما بعد كما لو لم يتمتعوا بمثل هذا الامتياز. والديانة إن لم تخلص فإنها ستكون للنفس أقسى عناصر هلاكها.

وغير معروف بالضبط عند أية نقطة بدأ رد الفعل في ذهن يهوذا الاسخريوطي. كانت في المحاكمة وقائع كثيرة من شأنها أن تحرك مشاعره أو تهزها بعنف. وعلى أية حال جاء وقت فيه انتفض ضميره انتفاضة هائلة من تلك الانتفاضات التي يصنع منها الكتّاب في جميع اللغات أفجع المآسي.

وفى الكتاب المقدس صورت هذه الانتفاضات رمزياً فى قايين وهو يهيم فى قفار الأرض تائهاً هارباً من صوت دم أخيه.

لقد تملكت يهوذا رغبة جامحة في أن يمحو ما فعل. والفضة التي وضع قلبه عليه أصبحت الآن شبحاً مرعباً. كل فلس منها كأنه عين للعدالة تحملق منها فى جريمته، وكل فلس منها كأن له لساناً يصرخ طالباً النقمة. وكما أن القاتل تقوده غريزته رغم إرادته إلى مكان الجريمة، عاد يهوذا إلى مسرح الحوادث حيث وقعت جريمة الخيانة ولقى هناك شركاءه الذين استخدموه فدفع الفضة إليهم وهو يقول «أخطأت إذ سلّمت دماً بريئاً». مسكين يهوذا ! لقد تلاقى مع جفاة عتاة احتقروه باستهزاء قائلين «ماذا علينا أنت أبصر» أى «وما شأننا نحن؟ تصرّف أنت» لقد تودّدوا إليه عندما جاءوا إليه أولاً أما الآن وبعد أن خدمت الآنية غرضهم ألقوا بها جانباً بكل احتقار. وتعيّن على ذلك المسكين أن يخفى وجهه عن تعييرات شركائه فى الجريمة. ولكنه لم يحتمل أن يمسك الفضة فى يديه أكثر من ذلك. إنها تنوب ملتهبة فى يديه فألقى بها. ويقال أن هذا حصل في مكان من الهيكل لا يدخله إلا الكهنة. ولعله فعل ذلك مدفوعاً بشعور خفى ليعطى للكهنة ما يخصهم من نصيب فى المذنوبية. وخرج مسرعاً من الهيكل. ولكن إلى أين؟ ياليته اندفع ليرتمى عند قدمى المسيح ! ليته تخطى الموانع والحواجز إلى حيث يوجد يسوع المسيح. وماذا لو أطاح به العسكر الرومان؟ حينئذ كان يهوذا يُحسب شهيد التوبة، وحينئذ فى نفس ذلك اليوم كان يكون مع المسيح فى الفردوس. لقد ندم يهوذا على خطيته واعترف بها ونزع عن نفسه أجرة الاثم، لكن ندامته أعوزها العنصر الأكثر لزوماً من كل عنصر آخر، إنه لم يرجع إلى الله. إن

التوبة الصحيحة ليست هى مجرد الفزع من صوت الضمير ولا مجرد الارتعاب أمام ضربات القلب المدوية. إنها صراخ إلى الله. إن التوبة الصحيحة كما تتضمن الخوف من الله تتضمن أيضاً الإيمان به والثقة فيه.

حتى نهاية يهوذا كانت موضوع استحسان وإعجاب بعض العصريين بالدوافع عليها . خرج يهوذا من الحياة بالطريقة الرومانية. والخروج بهذه الطريقة يعتبر دليلاً على قوة ذهنية غير عادية، هكذا قالوا . لكن على العكس من ذلك، ليس الانتحار إلا الفعلة الخسيسة بين الأفعال التى يستطيعها إنسان. إنه هروب من تبعات الحياة وتخلٍ عن أثقالها ومسئولياتها لكى يحملها آخرون ومعها يحملون تركة من الخزى والعار. وحتى من الناحية الدينية ليس الانتحار تخلياً عن الواجب فقط بل هو أيضاً نكران لصفات الله ووجوده. لأن المنتحر إذا كان يؤمن بوجود الله وبرحمته ومحبته لهرع إليه بدلاً من الهروب منه. وما من أحد يؤمن بأنه سيلق ربه على الشاطئ الآخر من هذه الحياة ويجرؤ على الاندفاع إلى محضره بمثل هذا الأسلوب الجنونى.

إن أسلوب يهوذا فى الانتحار كان أسلوباً حقيراً فإن شنق النفس، على ما يظهر لم يكن معروفاً عند اليهود، وفى كل العهد القديم لم تذكر سوى حادثة انتحار واحدة بطريق الشنق. ومن الغريب أنها حادثة انتحار الرجل الذى كان يرمز إلى يهوذا وهو أخيتوفل مُشير داود وصديقه الذى خان سيده كما خان يهوذا سيده، وانتهى إلى ذات النهاية التعيسة.

وعلى ما يظهر، كان شنق يهوذا محاطاً بظروف زادت من بشاعته وشناعته. هذا ما يُستخلص من مطالعة المكتوب عنه فى بداية سفر الأعمال.

إن العبارات المستعملة فيها شئ من الغموض لكن يُحتمل أن يكون الفعل قد اقترن بحادثة مروعة كان من نتيجتها تعلق الجثة على القائم الذى شُنقت عليه ثم ارتطامها، بسبب قطع الحبل، بما كان تحتها على الأرض، ارتطاماً مروعاً أدخل الرعب فى قلوب جميع من سمعوا بالحادث.

وهذا الشعور باللعنة التى ختمت بها حياة يهوذا تعمّق فى أذهان المسيحيين الأوائل بسبب ما استقر عليه الرأى من شراء مقبرة للغرباء بالثلاثين من الفضة التى بيع بها المسيح، فإن الكهنة وقد التقطوا الدراهم من على أرض الهيكل اعتبروها غير صالحة لأن توضع فى الخزانة المقدسة فعزلوها وخصصوها لشراء تلك المقبرة. والعامة لما سمعوا بهذا الخبر أطلقوا على ذلك الحقل حقل الدم. وهكذا أصبحت تلك المدفنة تذكاراً للخائن الذى كان أول من دفن فيها من المنبوذين.

إن العالم قد اتفقت كلمته على اعتبار يهوذا هو أول الخطاة. ولكن فى هذا الحكم يتجاوز العالم حدوده فإن الإنسان ليس كفواً لأن يحكم على أخيه الإنسان. صحيح أن الشهوة العارمة التى استولت على يهوذا كانت دنيئة جداً، وسمو وفضل المسيح يجعل الجريمة أشد بشاعة ودناءة. لكن الدوافع الكامنة وراء كل فعلة خفية ومستورة، وتاريخ كل فعلة نكراء محجب ومعقد لدرجة يصعب معها أن نقول مَن من الناس هو أول الخطاة. إن أولئك الذين يضعهم الناس فى مصاف القديسين والأبرار ويحوطونهم بهالة من الطهر والعفاف، قد لايكون هذا نصيبهم فى يوم المجازاة. وعلى نفس القياس قد يخطئ الناس عندما يوقعون حكم الدينونة على أشرار حمقهم ظاهر للجميع. غير أنه علينا أن نعتبر أمرين فى الحكم على فعلة يهوذا : الأول أن لا نُلطّف

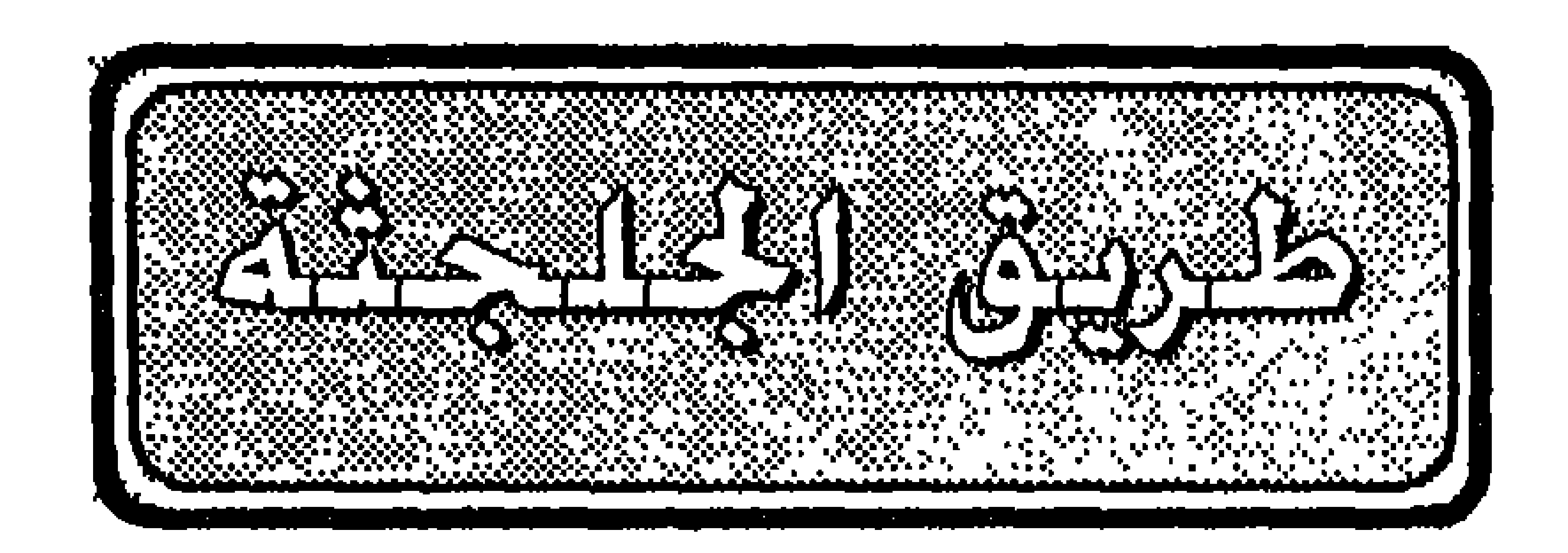
أو نُهوّن من شأن خطيته أو نمحو رائحتها الكريهة النتنة. والثانى أن لا نضعه هو وحده كأنه الخاطئ الوحيد الذى له طبيعة تختلف عن طبيعتنا لدرجة أنه لا محل للتشبيه أو التشابه بيننا وبينه.

على أنه لا تثريب علينا إذا التزمنا حكم الكتاب فى قضية هذا المسكين ونطقنا بهذا الحكم العادل المحدد السليم قائلين مع بطرس الرسول إن يهوذا «ذهب إلى مكانه».

***



الفصل الخامس



طريق الجلجثة

الآن وقد انتهينا من القسم الأول من موضوعنا عن محاكمة يسوع المسيح، نبدأ القسم الثاني عن موته. لقد كانت المحاكمة مهزلة مسخت فيها العدالة. فمن جهة السلطات الدينية كانت المحاكمة تمثيلية هزلية لأن الحكم كان مقرراً من قبل أن تبدأ المحاكمة. ومن جهة السلطات المدنية كانت جوراً وظلماً إذ فيها أسلمت حياة قام الدليل على براءتها لأن الأنانية والسياسة أرادتا ذلك. وأخيراً قضى الأمر ولم يبق إلا تنفيذ الحكم الجائر.

وانفضت محكمة بيلاطس وخلت الدار من جموع الحاضرين ثم بدأ موكب الموت يشق طريقه.

فى أيامنا الحاضرة يُمنح المحكوم عليهم بالإعدام بضعة شهور أو على الأقل بضعة أيام يستعدون فيها للأبدية، أما يسوع المسيح فقد صُلب فى نفس اليوم الذى صدر فيه الحكم عليه. ورغم أنه كان يوجد قانون رومانى قائم فى ذلك الوقت يقضى بأن يمنح المحكوم بإعدامه عشرة أيام يجب أن تنقضى ما بين صدور الحكم وتنفيذه إلا أن هذا القانون لم يراع تماماً فى الولايات، كما أن يسوع المسيح قد حوكم بدون مراعاة لأى نوع من الرحمة وذلك لأنه جعل نفسه ملكاً. وعلى أية حال سيق من أمام منصة القضاء إلى مكان التنفيذ دون إمهال، بلا رثاء وبلا وداع.

وكان طبيعياً أن يُنفذ الحكم بواسطة جند بيلاطس. ويوحنا يتكلم فى هذا الخصوص كما لو كان بيلاطس قد أسلم المسيح إلى أيدى اليهود ليروا هم من يقوم بتنفيذ الحكم. لكن معنى هذا أن المسئولية الأدبية وحدها عن موت المسيح ألقيت على عاتقهم بينما فى واقع الأمر هم عملوا كل ما فى وسعهم ليكون موت المسيح على أيديهم. إنهم لم يتركوا المهمة التعيسة لشركائهم بل تبعوهم وأشرفوا على عملية التنفيذ. أما عملية الصلب نفسها فقد قام بها العسكر الرومان وعلى رأسهم قائد مئة.

وفى أيامنا الحاضرة ينفذ حكم الإعدام داخل أسوار السجن الذى يقضى فيه المحكوم عليه أيامه الأخيرة. ومنذ عشرات السنين كانت الأحكام تنفذ علانية. ومنذ بضعة أجيال كان موكب الموت يدور فى شوارع المدينة لكى تنصب على المجرم المحكوم بإعدامه لعنات الناس بل أكبر عدد من الناس. وهذا ما حصل مع يسوع المسيح عند موته. وكانت العادة بين اليهود وبين الرومان على السواء أن ينفذ حكم الإعدام خارج أسوار المدينة. وإن كان لا يعرف بالضبط خارج أى باب من أبواب أورشليم القديمة صُلب المسيح إلا أن كلمة جلجثة يُحتمل أنها تشير إلى صخرة مستديرة تشبه الجمجمة. ولكن لايوجد أى جبل بالقرب من أى باب من أبواب أورشليم له هذه الشكل. واليوم فى أورشليم الجديدة طريق يُظن إلى درجة الترجيح أنه الطريق الحقيقى الذى مر من موكب الصليب، واسمه طريق الآلام (أو طريق الجلجثة) (Via Dolorosa) ولكن هذا أيضاً مشكوك فيه جداً لأن أورشليم القديمة مدفونة الآن تحت أنقاض الزمن. وتقدر المسافة بين مكان المحاكمة ومكان التنفيذ بحوالى الميل. وطبعاً كان يتعين على المسيح أن يقطع هذه

المسافة بينما على جانبى الطريق جموع من النظارة كانت تتقاطر وتنضم تباعاً إلى ذلك المشهد الحزين.

كان من لعنات تلك العقوبة المحكوم بها على المصلوب أن يحمل المذنب على ظهره الخشبة التى سيعلق عليها ويمضى بها إلى مكان التنفيذ. وكان صليب المسيح، كما هو مفروض، ثقيل الوزن وزاد من صعوبة حمله أنه تعين على يسوع المسيح أن يحمله على ظهر مزقته السياط منذ قليل.

زد على ذلك ما عاناه المسيح من وخزات إكليل الشوك لأنه لم ترد إشارة فى الأناجيل إلى نزعه عن رأسه. لكن أقسى من كل شئ وأثقل من كل شئ كان العار. كان حمل الخشبة التى يُصلب عليها، فيه لون من الاحتقار الوحشى الذى يكسر القلب.

ولايعوزنا الدليل على أن المسيح كان يعرف مقدماً نصيبه هذا من الآلام. لقد سبق وأنبأ بهذه الخاتمة، بل سبق وأنبأ بخاتمة تلاميذه الذين يحملون الصليب وراءه ـ كان الصليب هو أقسى ما تنتهى إليه آلام وتعبيرات الشهادة للمسيح.

وهل أشار الرب يسوع إلى حمل الصليب لأن معرفته الكاملة بالعالم جعلته يوقن أن الصليب هو أحقر وأشر ما تتفتق عنه طبيعة الإنسان، أم أن علمه السابق بأنه هو نفسه سيلقى فى يوم ما هذا المصير قد صبغ لغته؟ لعل الفكر الأخير هو الأرجح. والآن قد جاءت الساعة التى كثيراً ما لاحت أشباحها أمامه، وها هوذا فى ضعف جسدى وبلا معين يحمل صليبه فى أعين الألوف التى كانت تنظر إليه شذراً. وليس أقسى على النفس النبيلة من موجة عار واحتقار تغمرها. ويسوع المسيح كانت له المشاعر الحساسة

الرقيقة، ونفسه النبيلة الصافية هي نفس شخص لم يحدث مرة أن احتاج لأن يتراجع أو ينحنى أمام أمر من الأمور. لقد أحب الناس وقدّرهم كثيراً ولكن ليس لكى يحظى بحبهم وتقديرهم. ولقد مرت أيام تمتع فيها بإعجاب شعبى غير محدود، أما الآن فقد امتلأت نفسه عاراً وخجلاً وتذكر قول المزمور عنه «أما أنا فدودة لا إنسان عار عند البشر ومحتقر الشعب» أما عار المسيح فقد تحول الآن إلى مجد. لكن الحقيقة كانت مُرة ومهينة للغاية، ولاشئ يصور مرارتها أكثر من ذينك اللصين اللذين أخرجا ليصلبا معه. فعل بيلاطس هذا لكى يُشعِر اليهود بأى احتقار يعامل هذا الذى يقال عنه إنه ملك اليهود. لكن ربما كان الأصح هو أن المسيح لم يكن فى نظر الرسميين الرومان أكثر من أى سجين يقع بين أيديهم من وقت إلى آخر.

على أية حال كان تنفيذ حكم الصلب فى المسيح لايفرق شيئاً عن تنفيذه فى غيره من سائر المحكوم عليهم. وخرج الثلاثة. كلٌ يحمل صليبه، من أبواب سراى بيلاطس، يشقون طريقهم إلى الجلجثة.

خرج يسوع المسيح حاملاً صليبه، ولكنه لم يستطع أن يحمله طويلاً. ولعله انكفأ على الطريق تحت ثقله أو لعله كان يخطو بخطوات ضعيفة مجهدة حتى أن العسكر أدركوا ضرورة رفع هذا الحمل عن كتفيه. إن شدة الجلدات كانت كافية لاستنفاد قوته، أضف إلى ذلك عدم نومه طوال الليلة السابقة وما قاساه فيها من إهانات وإساءات، ومن قبلها ما ملأ نفسه من حزن واكتئاب فى جثسيمانى. لذلك لا عجب إن استنفذت طاقته تماماً.

وكان ممكناً لعسكرى أو عسكريين أن يحملا عنه حمله، ولكن بروح الاحتقار وعدم الاعتبار ـ وهى الروح التى عاملوه بها منذ أن وقع فى

أيديهم - أمسكوا برجل عابر الطريق وكلفوه بحمل الصليب عنه.

حمله الرجل على مضض، لقد كان راجعاً إلى بيته، ولكنه اضطره إلى العودة من حيث أتى. وما كان أشق هذه المأمورية على نفسه، ولابد أنه كان يشعر بنفس الشعور كما لو كان هو المحكوم عليه.

وحقاً هنا صورة جميلة لحمل الصليب. صحيح أن الصليب لا تعادله أية تضحية ولا يقاس به أى تعب من أى نوع. لكن أيضاً هو كل ما يُحمل فى طريق المسيح ولأجله. عندما تقف إلى جانب المبادئ المسيحية، وعندما تتحمل كنتيجة لذلك تعييرات وتقريعات أو خسائر وتضحيات. فحينئذ تكون حاملاً للصليب. إن ما يلحقك بسبب حديثك مع الغير عن المسيح، وما تصرفه من وقت أو جهد أو مال أو نكران للذات لأجل عمل الرب. فى كل ذلك يوجد صليب المسيح. وكل ذلك يتضمن التعب وعدم الراحة، والتضحية. قد يتأفف الإنسان تحت هذا الصليب وقد ينكفئ، وقد تنحدر من العين دمعة من جراء ثقله أو آلامه أو عاره ولكن ولا تلميذ للمسيح بدون الصليب. والرب قال «من لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى» (مت ١٠:٣٨).

لم يذكر الكتاب شيئاً عن سمعان القيروانى لكننا نرجح إلى درجة التأكيد أن تلك المقابلة على طريق الجلجثة وإن كانت بالنسبة له مؤلمة ومتعبة، فقد عادت عليه وعلى بيته بالبركة، فقد كان هو أبو الاسكندر وأبو روفس، وهذان مؤمنان من أولاد الله، وكيف لا وقد تقدم سمعان لكى يُقرض الرب بعض قوته البدنية ولكى يحمل عن ظهره الممزق ثقل الصليب؟ إنه فى يوم عتيد سوف يكافئ الرب كل خدمة قُدمت له. وفى ذلك اليوم سوف نتمنى لو أن الدقائق التى أعطيت للرب، كانت سنوات، والدراهم التى أنفقت فى سبيله

كانت جنيهات، وكل كأس ماء بارد وكل كلمة رثاء أو عطف، وكل فعلة جميلة تنطوى على نكران الذات كانت أكثر مما هى أضعافاً مضاعفة.



الفصل السادس



بنات أورشليم

بنات أورشليم

انطلق الخيال حول هذا الجزء من تاريخ يسوع المسيح، وقصة «اليهودى التائه» نالت فى دوائر الأدب ذيوعاً كبيراً، كما نالت اللوحة المسماة (Via Dolorosa) فى محيط الرسم والتصوير ذيوعاً مماثلاً.. أما القصة الأولى فقد ذهب فيها خيال الكاتب إلى أنه لما كان يسوع المسيح فى طريقه إلى الجلجثة يئن تحت ثقل الصليب وبصعوبة ينقل خطواته، خارت قواه أمام أحد البيوت المطلة على هذا على هذا الطريق. فمد يده ليستند إلى قائمة الباب حتى يسترد أنفاسه ويستعوض بعض قوته وإذا بصاحب البيت يطرده وبقبضة يده يضربه ضربة شديدة يستحثه بها على متابعة السير، فالتفت إليه يسوع المسيح وقال «تائها تهيم على وجهك وليس لتيهانك نهاية حتى أجئ ثانية». وتقول القصة الخيالية أنه إلى هذا اليوم يهيم هذا اليهودى على وجهه من مشارق الأرض إلى مغاربها يرجو راحة أو يطلب موتاً فلا يجد، وأنه سوف يستمر هائماً شارداً حتى مجئ الرب. هذه هى أسطورة «اليهودى التائه». وقد أخذت هذه القصة عدة أشكال فى عالم الأدب. وطبعاً هى مجرد تصوير فيه شُبهت الأمة اليهودية بشخص انتهى إلى هذا المصير التعيس منذ اليوم الذى فيه «بأيدى أثمة» قتلت ابن الله الكريم.

أما اللوحة المسماة (طريق الآلام أو Via Dolorosa) فقد صور فيها الفنان سيدة أسماها «ڤيرونيكا Veronica» من أورشليم كانت تقف أمام

بيتها على طريق الجلجثة ورأت يسوع المسيح يتصبب عرقاً ودماً وهو ينوء بالحمل الثقيل، فأسرعت وأخذت منشفة ومسحت بها الدم والعرق ولما نشرت المنشفة بين يديها إذا بها تحمل صورة كاملة الشبه والملامح من صورة «رجل الأحزان» وطبعاً أراد خيال الفنان بهذه اللوحة أن يقول إن الأمور البسيطة العادية فى هذه الحياة عندما تعبّر عن شعور جميل أو معنى كريم من معانى الرحمة والرثاء تنطبع عليها صورة المسيح نفسه.

وكثيرة هى الصور واللوحات التى تعبّر عن مراحل طريق الجلجثة. ولكن نحن نعرف من الكتاب منظرين إثنين من مناظر هذا الطريق : أولهما منظر سمعان القيروانى الذى حمل الصليب عن المسيح، وثانيهما منظر بنات أورشليم وهن يذرفن الدموع رثاءً وعطفاً على هذا المتألم الملكى.

فى خضم هذه المشاهد المقبضة يشتاق القلب إلى بصيص من النور يشق ظلمات العداوة القاسية. ومن عجب أن نرى شيئاً من هذا يحصل فى أورشليم ومن أهلها !! إن واحداً فى تلك المدينة العاصية لم يستجب لدعوة يسوع المسيح، وأورشليم كانت مركزاً للمعلمين المنتفخين والكهنة المتعظمين المترفهين. هناك كان الفريسيون والصدوقيون الذين قادوا الرأى العام فيها. وقليلون هم الذين أعطوا المسيح أذناً صاغية. إن أكثر الذين تحمسوا له كانوا من مقاطعة الجليل. والجليليون الذين جاءوا إلى العيد هم الذين استقبلوه وحيوه فى أورشليم بهتاف «الأوصنا». لكن سكان أورشليم وأهلها لم تتحرك فيهم أية مشاعر من جهته، وأمام بيلاطس صرخوا قائلين «اصلبه ... اصلبه».

لكن على ما يبدو قد اتضح أن المسيح قد لمس قلوب فريق من أهل

أورشليم، لأنه «تبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً وينحن عليه» والبعض ظنوا أن أولئك النسوة جليليات. لكن يسوع المسيح خاطبهن بقوله «يابنات أورشليم» إن رجال الجليل الذين تحمسوا له في يوم دخوله مظفراً، اختفوا الآن بينما خرجت نساء أورشليم ليدفعن ضريبة الدموع على شبابه وصفاته وآلامه.

ويُقال إنه كان هناك قانون يمنع إظهار أي عطف أو رثاء للمحكوم عليه بالموت صلباً، فإذا كان الأمر كذلك فمعنى ذلك أن قلوب أولئك النساء كانت صادقة الحنان غزيرة الوفاء حتى فاضت وعلت فوق كل سد وكل حاجز من القانون أو من العادات.

كما قيل أيضاً أن الكتاب المقدس لم يذكر مثلاً واحداً عن عداوة ليسوع المسيح صدرت من جانب المرأة. لم تتركه امرأة واحدة ممن تبعنه، ولم تسلمه امرأة إلى أعدائه، ولم تشترك امرأة في اضطهاده، ولم تقاومه امرأة في دعوته، بل على العكس من ذلك تبعنه وخدمنه من أموالهن، وغسلن رجليه بالدموع، ومسحن رأسه بالطيب، والآن بينما أزواجهن وإخوتهن يزفونه إلى الصليب خرجن يلطمن عليه وينحن. وحقاً هذه شهادة لصفات المسيح وسجاياه من الجهة الواحدة، ولحنان وعواطف المرأة من الجهة الأخرى. إنها بالغريزة كانت تشعر أن هذا هو منقذها ومخلصها، أليس مجيئه من امرأة قد عوضها بعض ما حرمت منه من تقدير أدبي على مدى قرون طويلة؟ وحيثما يُكرز بإنجيل المسيح تقترن الكرازة بما وجدته المرأة من نعمة في حساب الله وتقديره. فلا عجب إن تفجرت من قلبها مكنونات عواطفها ومشاعرها من جهته.

ولقد احتدمت المناقشات حول ما إذا كان فى عواطف ومشاعر بنات أورشليم أى عمق. ونحن لا ننكر الحقائق فإن مشاعرهن لم تكن وليدة الإيمان واالتوبة المصحوبة بتغيير انقلابى فى حياتهن، بل كانت من فيض الإحساس الطبيعى الذى يمكن أن يستجيب لأى منظر مؤلم. بل لم تكن دموعهن من صنف تلك التى تغرورق بها عيون الأتقياء وهى تتأمل آلام المسيح. ونحن نعلم أن مثل هذه المشاعر وقتية لا تدوم فإن طبيعتنا تتكون من عدة طبقات، وطبقة المشاعر هى السطحية بين هذه الطبقات. ولايكفى أن تؤثر الديانه فى هذه الطبقة السطحية بل يجب أن تتغلغل إلى الطبقات الأعمق مثل الضمير والإرادة وهناك تسود وتشتعل قبل أن تمسك بزمام الكيان كله.

لكن هذا الانعطاف من جانب المرأة نحو المسيح كان مقدمة تحمل معانى هذا الانعطاف، مقدمة لإخلاص وتكريس وتعبد كان المسيح عتيداً أن يتقبله من قديسات متعاهدات بالتقوى فى هذا العالم. كانت عواطفهن ومشاعرهن ودموعهن فى تلك الساعة الأليمة الموحشة كباقات عطرية زكية العبير لمسافر أعيته رمال الصحراء، ورنين أنّاتهن المشفقة غمر نفسه الحزينة بإحساس من صنف إحساسه بمحبة مريم عندما كسرت قارورتها فامتلأ البيت من رائحة الطيب.

وهكذا على «طريق الجلجثة» اختبر يسوع المسيح شيئين خففا ولطّفا من آلامه اختبر قوة الرجل لما أعفاه سمعان القيروانى من وطأة الصليب على جسده المنهك. كما اختبر رقة المرأة لما هبت على نفسه المتألمة نسمات رقيقة من حنان بنات أورشليم. وأليس فى ذلك مثل لما يمكن أن يعمله الرجال

والنساء لأجل الرب يسوع؟ إنه يريد من الرجال سواعدهم وقبضات أيديهم والأكتاف التى تحمل نيره. إنه يريد منهم الذهن الذى يفكر ويخطط ما ينبغى أن يعمل لأجل مجده. كما يريد منهم الإرادة التى تدفع العمل فى وجه المقاومات. إنه يريد منهم اليد السخية التى تعطى مبسوطة لأجل نجاح العمل كما يريد من النساء عاطفة ترهف إحساس العالم حتى لا يتحجر، يريد منهن تأثيرهن العاطفى. وما أقواهن جذباً أو دفعاً عندما يقفن عند ينابيع مجارى الحياة البشرية، وبلمسة حانية أو بهمسة حنون يحولن المجرى وجهة أو أخرى.

كان مسموحاً للمحكوم بإعدامهم أن يخاطبوا الجمع الذى يشهد تنفيذ الحكم، وكثيراً ما كانت بعض الكلمات الأخيرة ذات تأثير وجمال، وبعضها حفظته الأجيال للذكرى والعبرة. من أجل ذلك لم يكن مستغرباً أن يخاطب المسيح - أو يسمح له بأن يخاطب - الجمع الذى تبعه إلى الجلجثة. توقف يسوع المسيح على طريق الجلجثة وخاطب النساء اللواتى ملأ بكاؤهن وعويلهن أذنيه. وكانت كلماته - فى المكان الأول - إعلاناً عن نفسه. لقد أظهرت كلماته ما ظهر مراراً وتكراراً إبان عملية الصليب من اهتمامه وهو فى وسط آلامه بآلام وأحزان الآخرين.

كانت آلامه وقتذاك فى شدتها. لقد امتلأت نفسه ظلماً وامتهاناً. وأوسع جسده ألماً وفاض به التعب، وعلى ذهنه ألقت الدينونة المرة الرهيبة ظلالها القاتمة، ومع ذلك عندما سمع من خلفه بكاء بنات أورشليم تحركت فى نفسه وفى أحشائه عاطفة عارمة غطت آلامه وأوجاعه، لقد رأى فى دموعهن منظراً عتيداً ومصيراً محتوماً يزحف على تلك المدينة التى لم تعرف زمان افتقادها

ـ تلك المدينة التى قابلته بالجحود والنكران ـ المدينة التى منذ أيام قلائل وهو فى نشوة انتصاره، نظر إليها من على سفح جبل الزيتون ثم بكاها بدمع غزير وخاطبها بلغة لم تخاطب بها مدينة أخرى على وجه الأرض. نعم إنه يرى الآن مصيرها ويحس هول القضاء العتيد، ففى أقل من نصف قرن كان ذلك القضاء الرهيب عتيداً أن يسحقها بشكل لم يسبق له مثيل. والذى روى تاريخ الحصار حولها وهو يهودى قال : «ليس على الأرض جنس من الأجناس ولن يكون بين الناس كافة من تقاس آلامه بآلام أورشليم أيام الحصار». وشبح تلك الضيقة المرة هى التى جعلت يسوع المسيح يقول الآن : «يا بنات أورشليم لا تبكين علىّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن».

إنه كان يستحق دموعهن وعطفهن، لكنه بعاطفة حساسة مرهفة رأى كيف أنه فى أيام الحصار القادم على المدينة سيقع أثقل القضاء على النساء، وكيف سيذرفن الدمع مسفوحاً على أولادهن. وفى البلد الذى يرى فى الأولاد تاج ومجد الأمومة، سوف تنقلب الأوضاع الطبيعية من جنون الجوع وشدة الألم حتى تطوّب العواقر والبطون التى لم تلد. نعم فى بلد ترى فيه كثرة الأيام فخر الحياة وبركتها العظمى، سوف يطلبون الموت العاجل المبكر.

وفعلاً كان كذلك، وإننا لنشفق من تكرار ما ذكره يوسيفوس فى تاريخه عن أيام الحصار. لقد عمد الرومان علاوة على سائر أساليب الحرب إلى تجويع سكان أورشليم حتى خوى الوفاض من كل ما يؤكل، وحتى جن الناس من شدة الجوع فلم يكونوا يطيقون رؤية أى فم جديد يطلب القوت، واللقمة الأخيرة كانت تنتزع من أفواه الأمهات والأولاد ... إلى آخر تلك

المآسي التي نفضل أن نسدل عليها الستار.

أخيراً كانت في كلمات يسوع المسيح لبنات أورشليم دعوة للتوبة، فإنه عندما قال «ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن» لم يشر فقط إلى الأهوال القادمة على المدينة بل أيضاً إلى آثام وذنوب تلك المدينة. هذا واضح في كلماته التي اختتم بها عباراته لهن : «لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس؟». إنه تكلم عن نفسه كالعود الرطب. كان في شباب العمر وكان بريئاً، وشهدت لهذا دموع النساء. ولم يكن هناك سبب يبرر موته، ولكن الله سمح أن تأتي عليه كل هذه البلايا.

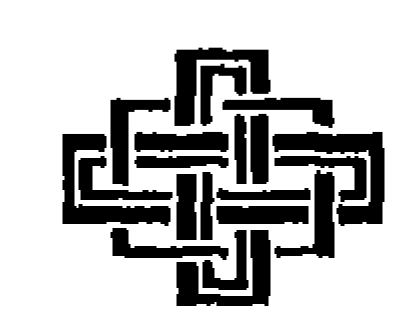
وأمة اليهود كان يجب أن تكون عوداً رطباً. لقد غرسها الله وأحاطها بكل رعاية، ولكنه لما جاءها يطلب ثمراً لم يجد. لقد جفت ونضبت فيها عصارة التقوى والفضيلة. يبست وصارت مهيأة للحريق. وإذا جاءها العدو ليشعل النار فلماذا يتداخل الله؟ هذا ما فعله يسوع المسيح. إنه يتمهل ليوقظ فيها مشاعر التوبة. إنه أراد أن ينقل إحساسات بنات أورشليم من دائرة المشاعر إلى دائرة أعمق. لقد أعطينه دموع العاطفة وهو أراد إلى جانب هذه دموع الندامة، لأن الديانة الصحيحة هي التي تمس الضمير.

فهل استجابت إحداهن لكلمات الرب يسوع؟ هذا ما لا نعرفه، ونخشى أن تكون القليلات هن اللواتي تأثرن بكلامه، وعلى أية حال سرعان ما أحرقت نار الدينونة تلك الشجرة الخضراء، وتركتها هشيماً. وأولئك الذين لم يبكوا على خطاياهم قبل وقوع الضربة تعين عليهم أن يبكوا طويلاً وبلا انقطاع. وزوار بيت المقدس إلى يومنا هذا يُقتادون إلى بقعة تسمى «المبكى» حيث يتوجه من يستطيع من اليهود في كل يوم جمعة وهناك يبكون خراب

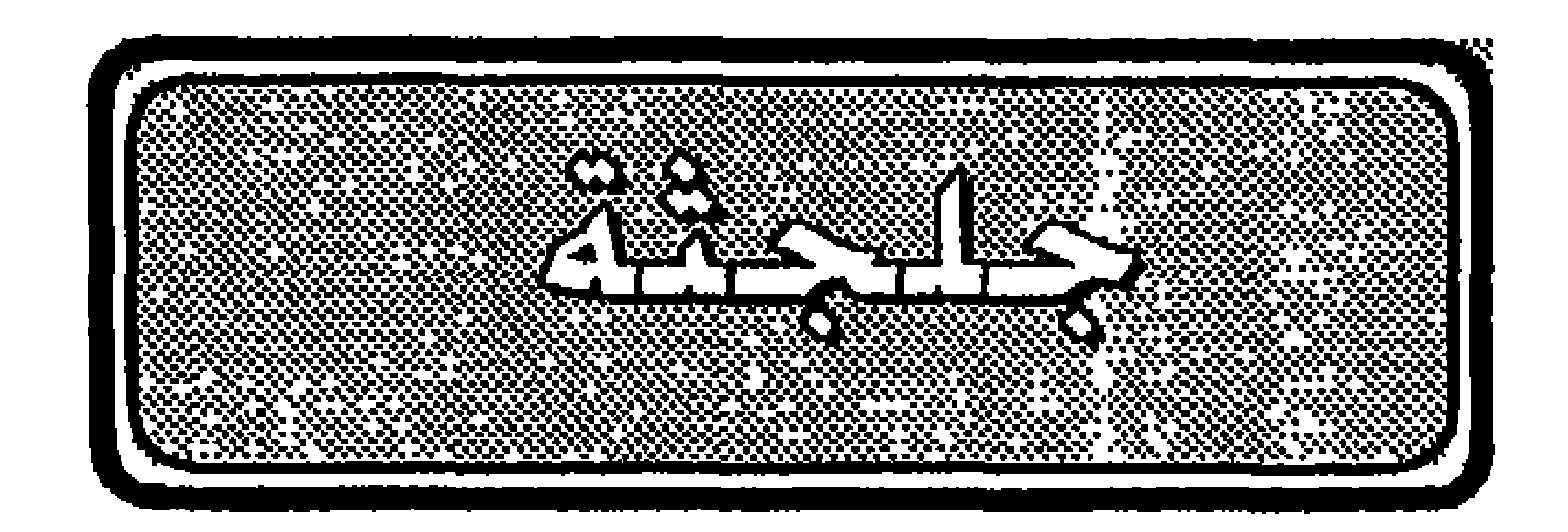
مدينتهم وهيكلهم. وعلى مدى قرون طويلة ظل الحال هكذا. وما هو إلا رمز لكأس السخط والترنح وقد امتلأت حتى الحافة وألصقت قسراً بشفتى إسرائيل يجرعونها كل هذا الدهر الطويل.

لابد يوماً ينطلق العويل على الخطية، إن لم يكن قبل الدينونة فلابد بعدها، وإن لم يكن فى الزمان فلابد فى الأبدية، هذا درس للجميع.

إن فى عبارة الرب يسوع الأخيرة درساً بالغاً لنا جميعاً «إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس؟» وإن كانت الدينونة الرهيبة قد وقعت على ابن الله حاملاً للخطايا فماذا يكون نصيب أولئك الذين تعيّن عليهم أن يحملوا دينونة خطاياهم؟



الفصل السابع



جلجثة

ها نحن قد وصلنا إلى مشهد نشعر أمامه بالقصور، كل القصور، وبالعجز، كل العجز. مشهد نرى فيه يسوع المسيح مصلوباً. لكن من هو كفء لأن ينظر إليه؟ ومن هو كفء لأن يتكلم عنه؟ الكل يقول «صغير أنا ومعرفتك عجيبة فوقي». أمام مثل هذا المشهد يشعر الكل بضآلة الفكر البشرى، كسقط المتاع فى قاع بحر عميق وواسع الأطراف.

هذه الربوة التى أتينا إليها هى مركز الدائرة. هنا يتلاقى الأزل والأبد، وعندها تتعرج روافد التاريخ القديم، ومن عندها يتدفق نهر التاريخ الحديث.

إن عيون الآباء والأنبياء تعلقت بالجلجثة واشرأبت أعناقهم إليها، والآن تستدير نحوها عيون كل الأجيال من كل الأجناس. هى ملتقى ونهاية كل الطرق.

والباحث عن الحق، الذى خاض بحار المعرفة، يأتى إلى الجلجثة ليجد فى النهاية أنه قد وصل إلى ضالته المنشودة.

والقلب البشرى الذى ضرب فى طول الأرض وعرضها بحثاً عن الكمال والحنان والمحبة والجمال يصل إلى الجلجثة ليجد فى النهاية أنه قد وجد راحته.

تأمل كم من ألوف مؤلفة، فى كل أول أسبوع، يجتمعون جماعات جماعات فى الكنائس والبيوت والمجتمعات لكى يتفكروا فى الجلجثة. وكم من

عيون ترنو إليها من خلال الدموع كل صباح أو مساء، بعضها من على فراش المرض وبعضها يلقى النظرة لتغمض إلى الأبد. والكل قائل «يارب إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك».

ورغم أن الغاية التى أمامنا أسمى من أن نصل إليها إلا أننا سنحاول السير نحوها. إنها أسمى جداً من أن يبلغها الفكر البشرى، إلا إنها الغاية الفريدة الوحيدة التى فى مراقيها يتسامى الفكر متشحاً بالرفعة موسوماً بالنبل.

عند الجلجثة تغنى الشعراء بأفخر القريض، ومن عندها استوحى الفنانون أروع لوحاتهم، ومنها انبثقت فى خواطر قادة الفكر أشرف الفلسفات وأنبلها.

إن ذلك المخلوق الصغير، فى مكمنه داخل القوقع فى قاع المحيط العظيم ومن فوقه عالم من مياه صاخبة طامية، لايدرك من أمر هذا الخضم المترامى الأطراف شيئاً ومع ذلك يملأ المحيط قوقعه ليبعث فى جسمه القليل الضئيل الحياة والرضى والسكينة. وعلى هذا القياس، إن كنا لانستوعب كل معانى المشهد الذى نمثل أمامه إلا أننا نستطيع أن نغترف من مناهله حتى يمتلئ الفكر والقلب بقدر ما يتسعان للامتلاء، فإذا ما نبض كياننا كله بنبضات الحياة الإلهية، فلنثق ونسر بأنها ذات عرض وطول وعلو وعمق، يفوق الإدراك والمعرفة.

وأخيراً انتهت الرحلة الطويلة من شوارع أورشليم إلى مكان التنفيذ وبانتهائها اختتمت جولات المتألم الكريم وابتدأ العسكر استعداداتهم للفصل الأخير. غير أن حادثة صغيرة حصلت كان تصرف الرب يسوع فيها كبير

المعنى والدلالة.

كان من عادة سيدات الطبقة الغنية فى أورشليم أن يهيئن للمحكوم عليهم بعقوبة الصلب شراباً مخدراً من النبيذ الممزوج بالمر يقدمنه إليهم قبيل الصلب لكى تتبلد حواسهم وتقل آلامهم. كانت هذه عادتهن. وإنها لعادة طيبة فيها معانى الاشفاق والاحسان. وكانت تلك الكأس الممزوجة تقدم إلى جميع المحكوم عليهم بلا تفرقة بغض النظر عن جرائمهم. وكانت تعطى لهم قبل عملية تسمير أجسادهم على الخشبة الرهيبة. ولقد امتدت يد تمسك بهذه الكأس نحو الرب يسوع بمجرد وصوله إلى جلجثة وكان وقتذاك قد أنهكه التعب وأحرقه العطش فتناول الكأس ورفعها إلى شفتيه ولما ذاقها أعادها ولم يرد أن يشرب.

إنه تصرف فى غاية البساطة لكنه انطوى على بسالة وشجاعة. كان عطشاناً، يبست من الجفاف قوته. وكان متعباً، أنهكه الظلم والأذى. وفى أجيال أخر، كثيرون من شهدائه الأمناء استباحوا لأنفسهم مثل هذه الكأس الرحيمة. ولكنه لم يشأ أن يتأثر صفاء ذهنه. لم تكن طاعته قد كملت بعد، ولم تكن مهمته قد أنجزت بعد. لقد أراد أن يذوق الموت صرفاً وأن يذوقه واعياً.

كان كل شئ قد تهيأ للفصل الأخير ... وتهيأ العسكر للعمل الوضيع الرهيب. ولسنا نريد أن نُرعب المشاعر بذكر التفاصيل عن عملية الصلب، إذ ليس أسهل علينا من هذا. وما الصليب إلا الصورة الدنيا بين صور الموت جميعاً. وشيشرون خطيب الرومان قال عنها «إنها أخس وأقسى العقوبات كافة ... بُعداً لها عن جسد المواطن الرومانى ... بُعداً لها عن مسامعه

ونواظره وعن أفكاره وخواطره ...».

إنها عقوبة العبيد والثوريين الذين أريد لخاتمة حياتهم أن تدمغ باللعنة من نوع مخصوص.

كان للصليب أشكال مختلفة بعضها على شكل الحرف (T) وبعضها على شكل العلامة (X). ولكن من حيث أن الكتاب يقول «جعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود»، فلابد أن كان شكل صليبه هو الشكل المعروف حيث يمتد القائم الرأسى ليتقاطع مع العارضة الأفقية التى عليها كانت تنبسط الذراعان. ولابد أن الذراعين كانتا تربطان (خصوصاً من تحت الإبطين) مع العارضة وإلا فإن اليدين كانتا تتمزقان من ثقل الجسد. ولنفس هذا الغرض لابد أن كانت على القائم الرأسى قاعدة صغيرة تبرز بميل لتستقر عليها القدمان اللتان إما أن كانتا تسمران جنباً إلى جنب أو تسمران والمشطان متقاطعان بمسمار واحد يدخل فى كليهما معاً، ولايُعرف على وجه التحديد إن كان الجسد يُسمّر قبل أو بعد أن يُنصب الصليب فى مكانه من الأرض. أما الرأس فكانت تترك حرة حتى يتسنى للمصلوب أن يرى وأن يتكلم مع الذين حوله.

وفى أيامنا الحاضرة يبذل كل الجهد لكى يكون الموت خاطفاً بقدر الإمكان. والرأى العام يثور ضد كل إجراء من شأنه إطالة غصصه. أما عقوبة الصلب فكان من أبرز مظاهرها إطالة العذاب عمداً حتى أن الضحية كانت تقضى نحبها بعد يوم كامل، وأحياناً بعد يومين أو ثلاثة أيام، يذوق فيها المصلوب المسكين ألواناً من الضيق المر والألم المبرح بسبب التهاب جروح اليدين والرجلين وبسبب الوضع المتعب غير الطبيعى، وبسبب العطش

الشديد المتزايد.

أما يسوع فلم يمكث طويلاً، لقد مات بعد نحو خمس ساعات، ويكفينا هذا القدر من وصف آلامه المضنية. وإذا عرفنا سر ما قاسته نفسه البارة من آلالم يمكننا أن ندرك دقة اختبار الصورة الأكثر عاراً والأشد وخزاً والأمرّ مذاقاً بين صور الموت جميعاً.

إن آلام المسيح الحقيقية لم تكن هي التي حاقت بجسده. إنها آلام نفسه في الداخل. على ذلك الوجه انطبعت كآبة أعمق بكثير من تلك التي تنشئها جروح دامية أو عطش شديد أو هيكل محطم. إنها كآبة نفس محبة أحتقرت محبتها. إنها كآبة قلب ودود سحقته العداوة. كآبة نفس كريمة هانت على الناس فأهانوها مخطئين. كآبة قلب يذوب حزناً على مصير أولئك الذين لايريدون خلاص أنفسهم ... بل حتى هذا كله لم يكن كل شئ. لقد ملأ قلب الفادى حزن يجل عن الوصف وتعجز لغة البشر عن تبيانه. إنه كان يموت من أجل خطية العالم. إنه حمل في نفسه مذنوبية الجنس البشرى. وها هو الآن في آخر مراحل الحرب الضروس ليصفى حسابها ويبطلها إلى الأبد. وعلى الصليب لم يكن معلقاً فقط جسده الذى من لحم ودم بل في نفس الوقت كان هناك أيضاً جميع المؤمنين به لكى تنتهى نسبتهم إلى آدم الترابى، ومنهم جميعاً أخذ الموت حقوقه. مع المسيح صُلب المؤمنون به وماتوا عن الخطية لكى يحيوا لله إلى أبد الآبدين.

هذا هو سر المشهد، بل هو أيضاً مجده. وحتى اللحظة التى صُلب فيها الرب يسوع كان الصليب رمزاً للعبودية والإثم. فانقلب بعد ذلك إلى رمز للبطولة والتضحية والخلاص. منذ ذلك التاريخ والناس يفخرون بالصليب.

وطبعوه على بنود الجيوش وأعلام الدول وأحاطوه بأغلى الدرر على تيجان الملوك.

لقد غُرس صليب المسيح على رابية الجلجثة، خشبة جامدة خشنة. ولكن هوذا هى قد أفرخت مثل عصا هرون. لقد ضربت جذورها عميقاً فى قلب البشرية وأطلقت فروعها حتى ملأت العالم. ومن كل قبيلة ومن كل لسان ومن كل شعب ومن كل أمة وَجد أناس فى الصليب ظلاً وثمراً.

وأخيراً تمت كل الترتيبات والإجراءات وأمام عين البغضة اليهودية استُعرض ابن الإنسان - مخلص الخطاة - الذى افترسوه بوحشية. ولكن نظرة الكهنة والفريسيين وأشرار الشعب - نظرتهم الأولى الظافرة - اصطدمت بعنف بشئ كان مكتوباً ومعلقاً فوق رأس الفريسة. لقد أصابتهم الصدمة فى نحورهم بقسوة.

وفى بعض الأقطار تمارس إلى يومنا هذا عادة وصف جريمة المحكوم عليه وإشهارها علناً عند مكان التنفيذ. أو تعليق ملخص الجريمة ووضعها على جهاز التنفيذ، وهى عادة رومانية. وبيلاطس أراد أن ينتهز الفرصة ويرد لليهود كيدهم له بأن يضع قطرات مرة فى كأس انتصارهم فكتب عنوان الصليب هكذا «هذا هو يسوع ملك اليهود» وكأنه أراد أن يقول «هذا هو مصير أى ملك يهودى وهذاما يفعله الرومان به، إن ملك هذه الأمة ليس إلا عبداً مذنباً. وإن كان هذا هو مصير الملك فماذا يكون مصير الشعب؟

غضب اليهود لهذا العنوان وأرسلوا رسلاً إلى بيلاطس يسألونه أن يغير الكتابة. وبلاشك فرح بيلاطس لما رأى المبعوثين لأنه أدرك أن السهم أصاب منهم مقتلاً، فسخر منهم ومن طلبتهم وطردهم فى كبرياء - أتقن حكام

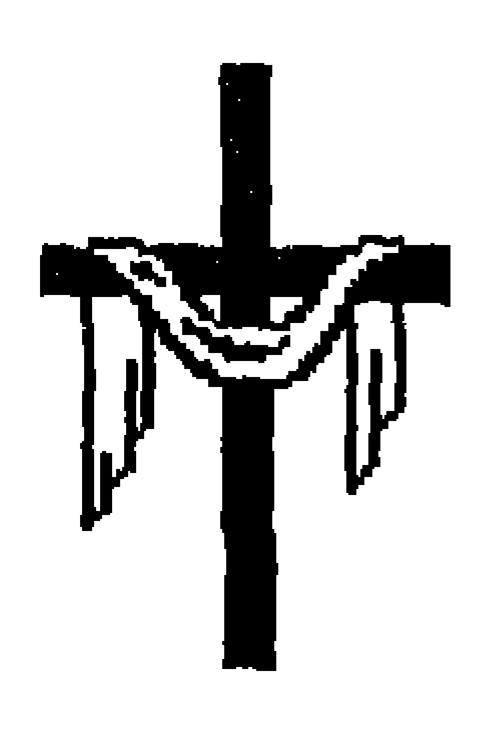
الرومان تصنعها - وهو يقول «ما كتبت قد كتبت».

وعلى أية حال بدا بيلاطس كأنه الحاكم القوى، لكن الحقيقة كان كلامه مع المبعوثين تغطية لضعف كان يحسه. لقد أراد أن تكون الكتابة هكذا وكان له ما أراد ولكنهم هم أرادوا أن ينفذوا حكم الصلب وكان لهم ما أرادوا رغم إرادة الحاكم - كان بيلاطس قوياً لدرجة أنه استطاع أن يؤلمهم بالغمز لكنه لم يكن قوياً لدرجة إنكار ذاته.

ومع ذلك، إن كانت الكتابة فى تقدير بيلاطس مجرد وخزة وجهها إلى أعدائه إلا أنها فى تقدير الله كانت ذات معنى عميق جداً. قال لهم بيلاطس «ما كتبت قد كتبت»، لكنه لو درى لقال «ما كتبت قد كتبه الله». مرة كان بيلاطس ينطق بكلمات النبى وهو لايدرى عندما أشار إلى يسوع المسيح قائلاً «هوذا الإنسان» والآن وقد كان فى المرة الأولى النبى المتكلم، كأنه النبى الكاتب، لأن قلمه كان مسوقاً بيد علوية ليسطر العبارة «هذا هو يسوع ملك اليهود».

ومما زاد فى معنى الكتابة أنها كانت مكتوبة بالعبرانية واليونانية واللاتينية. لقد أراد بيلاطس أن يُبالغ فى إهانة رؤساء اليهود بأن أراد أن يقرأ العنوان جميع الغرباء الذين قدموا إلى أورشليم فى العيد، لكن العناية الإلهية أرادت شيئاً آخر فإن هذه هى الثلاث اللغات العظمى فى العالم حينئذ وفيها تتمثل حضارات عريقة. فإن العبرانية كانت هى لغة الدين، واليونانية كانت لغة الفلسفة والثقافة، واللاتينية كانت لغة الحكم والقانون. ويسوع المسيح استعلن ملكاً فيها جميعاً. وعلى رأسه تيجان كثيرة - هو ملك دوائر الدين، ملك الخلاص والقداسة والمحبة، وهو ملك فى محيط الثقافة

ـ بين يديه كنوز الفن والشعر والأدب والفلسفة، وجميعها تنسكب سكيباً عند قدميه ـ وهو ملك فى مجال السياسة. ملك الملوك ورب الأرباب، صحيح نحن لا نرى الكل بعد مخضعاً له لكن فى كل يوم نرى أولئك يخدمون مقاصده. واسم يسوع يطوف كل الأرجاء. البعض يتعلمون النطق به والبعض على استعداد لأن يموتوا لأجله. وهكذا نبوة بيلاطس التى نطق بها بدون وعى ما زالت تتحقق.



الفصل الثامن



جماعات حول الصليب

فى الفصل السابق رأينا ابن الإنسان مسمراً فى الصليب وهناك استمر معلقاً مدة بضع ساعات، مسكيناً صامتاً يسمع التعييرات والتشهيرات كأنه مغلوب على أمره، لكنه كان فى تمام وعيه، ينظر بعينيه وجوه الجماهير التى جاءت تشاهد نهاية حياته على الأرض. والناس فى أيامنا الحاضرة، فى مناسبات تنفيذ حكم الإعدام، يزدحمون عادة خارج أسوار السجن فى انتظار اللحظة التى يرتفع فيها العلم الأسود إعلاناً عن الانتهاء من تنفيذ الحكم. ومنذ الأيام القديمة تجتذب اجراءات الإعدام العلنى اهتمام الجماهير. وبلاشك كانت الحال هكذا فى أورشليم، وقد كانت حوادث الجلجثة توافق وقت عيد الفصح. وما أكثر الوافدين من الغرباء على المدينة لهذه المناسبة. هؤلاء لاشك رحبوا بحوادث الجلجثة كشئ طريف يستحق الاستطلاع. أضف إلى ذلك أن قضية يسوع المسيح قد هزت العاصمة وجميع الكور المحيطة.

أما المنظر الذى ازدحم الناس لرؤيته فكان أروع وأعظم ما وقعت عليه عين بشرية فى هذا العالم العريض. إن ملائكة أخذهم الدهش من هذا المنظر، وملايين من الرجال والنساء يديرون أنظارهم نحوه اليوم وكل يوم. لكن ماذا كان تأثيره على أولئك الذين شاهدوه عن قرب؟ إننا لكى نتحقق من ذلك دعنا نستعرض ثلاث جماعات متميزة حول الصليب انطبعت مشاعرهم على الذين من حولهم بدرجات متفاوتة :

[١] الجماعة الأولى وكانت الأقرب إلى الصليب. كانت جماعة العسكر الرومان:

ويبدو أنه كان من تقاليد الجيش الرومانى أنه إذا نفذ حكم الإعدام بواسطة الجنود فإن ملابس المحكوم عليه ومقتنياته تقع غنيمة من نصيب الذين نفذوا الحكم. ومع أن كثيرين من العسكر كانوا موجودين عند الصليب إلا أن عملية التنفيذ من إقامة الخشبة إلى تداول المطارق ودق المسامير ... الخ، كانت فيما يتعلق بصلب المسيح على أربعة منهم. هؤلاء الأربعة كان من حقهم أن يقتسموا كل مقتنياته، وما أن انتهوا من عملهم حتى تفرغوا لتقسيم الأسلاب لأن المحكوم عليه بالصلب كان يجرد من ملابسه قبل تثبيته على الخشبة إمعاناً فى تحقيره.

كانت الأسلاب التى غنموها هى ثيابه وضمنها قميص داخلى منسوج إلى فوق بغير خياطة.

هذا كل ما كان يمتلكه يسوع المسيح وكل ما تركه ليرثه الأربعة العساكر. ومع ذلك فهو يسوع المسيح الذى ورّث الجنس البشرى أغنى ثروة يمكن أن تورث وتغنى العالمين - إلا أنها ثروة روحية من الحكمة السامية والمثال العالى والأثر الجميل.

انتهى أربعتهم من عملهم البشع وجلسوا تحت جذع الصليب يقتسمون المغانم، وطابت لهم مكسباً.

وبعد أن قسموا الغنيمة إلى أربعة أقسام وجدوا أن القميص لاينفع فيه التقسيم لأنه منسوج ضفراً وحبكاً، ففضوا الإشكال بأن ألقوا عليه القرعة. ولربما أخرج واحد منهم ما يشبه «حجر الرهان» من جيبه - لأن المقامرة

كانت أحب التسليات عند العسكر الرومان - وراحوا يمزحون ويضحكون، وفوق رؤوسهم وعلى قيد أشبار منهم ابن الإنسان المتألم، يكفر عن خطية العالم، إن ملائكة ورؤساء ملائكة كانوا يزحمون قبة السماء وقد أدهشهم المنظر، وعلى بعد خطوة أو خطوتين من شخصه الكريم القدوس حفنة من العسكر بلا وعي ولا حس يقامرون على بقايا تافهة من ثياب المصلوب !! هذا هو تقديرهم ووزنهم للمأساة التى كان لهم فيها ضلع كبير. إنه لايكفى أن يكون المنظر رائعاً لتحس روعته بل يجب أن تكون هناك أيضاً العين الناظرة.

هناك من يعتبرون الأرض التى عاش فيها يسوع المسيح وسار فى شوارعها مقدسة. ويعتبرون القبة الزرقاء مقدسة لأنها انحنت فوقه وظللته، ويقدسون صحائف من التاريخ لأن اسم يسوع المسيح قد نقش عليها، ويقدسون بعض الأعمال اليومية لأنها عملت باسمه.

لكنا نتساءل أليس من بين المسيحيين فى الدول المسيحية ألوف الألوف الذين يعيشون كما لو لم يكن المسيح قد عاش إطلاقاً على الأرض، لايعرفون شيئاً ولايدرون من أمره شيئاً. ولم يخطر على بالهم أبداً أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال : «ماذا يعنى موت المسيح بالنسبة لنا وأى نصيب لنا فى موته الذى ماته على أرضنا؟».

[٢] والآن نأتى إلى فئة أخرى تزيد عن الأولى عدداً هم :جماعة الشيوخ من أعضاء السنهدريم :

إنهم بعد أن حاكموه وحكموا عليه فى محكمتهم، رافقوه فى كل خطوة من خطوات المحاكمة المدنية حتى ظفروا بالحكم بإدانته من بيلاطس. وكان

المفروض أن يعودوا إلى بيوتهم بعد تعب وسهر طويل خصوصاً وقد أسلم يسوع إلى جلاديه لينفذوا فيه الحكم الذى أرادوه لكن حقدهم ومقتهم زاد اشتعالاً، وتعطشهم إلى الانتقام كان شديداً لدرجة أنهم لم يدعوا العسكر يؤدون عملهم بل زاحموا الجموع طارحين كل اعتبار أدبى ورافقوه إلى مكان التنفيذ ليشبعوا عيونهم من منظر الذبيحة تتأوه وتتألم.

وحتى بعد أن رُفع على الخشبة أطلقوا فيه ألسنتهم وسلبوه حق الميت فى أن يموت بسلام، ولكنهم إذ قد فقدوا كل معانى اللياقة والإنسانية راحوا يقذفونه بالتعييرات والإهانات ولاذع السخريات. وطبيعى أن يحذوا الجمع حذوهم حتى تجاسر ليس فقط العسكر من حوله بل اللصان أيضاً اللذان صُلبا معه، على تعييره وتقريعه، وهكذا تحولت ساحة الجلجثة إلى بحر يهدر ازدراء ويقذف استهزاء، تتلاطم حول الصليب أمواجه المتعاركة الغاضبة.

كانوا فى تقريعه يذكرون كل الأسماء والألقاب السامية التى وصف نفسه بها أو التى وصفه بها الآخرون، يذكرونها بالمباينة بينها وبين ما صار عليه الآن فوق الصليب ... «ابن الله»، «مختار الله»، «ملك إسرائيل»، «المسيح»، «ملك اليهود»، «يا ناقض الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام». بهذه التعييرات كانوا يسخرون منه بكل نوع من أنواع السخرية، وتحدوه أن ينزل من على الصليب فيؤمنوا به. طلبوا ذلك بصراخ وأصروا على طلبهم قائلين «خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها».

وبينما هم يفرغون المرارة المتراكمة فى قرارة قلوبهم ما دروا أنهم كانوا يقولون عين ما قيل فى المزمور الثانى والعشرين «كل الذين يروننى يستهزئون بى قائلين اتكل على الرب فلينجه لينقذه لأنه سر به».

وكان ممكناً للرب يسوع أن يجاوب معيريه، كان يمكنه أن يرد على ضجيجهم بجواب يسكتهم لكنه لم ينطق بكلمة واحدة «الذى إذ شُتم لم يكن يشتم عوضاً وإذ تألم لم يكن يهدد» و«كنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه» ولم يكن ذلك لأنه لم يكن يشعر. كلا. إن تلك الكلمات الصعبة التى أطلقت عليه كانت على نفسه وعلى ذهنه أشد وأقسى من وخزات المسامير. إن القلب البشرى فى تلك الآونة قد كشف عن جوانبه وفساد جوانحه وصب نقيع خبثه على حمل الله الوديع.

فى بداية خدمته على الأرض جاءه الشيطان ليجربه وأخذ يلح عليه أن يلقى بنفسه من على جناح الهيكل، وها هى التجربة تلاحقه، ومن كل جانب تقرع أذنيه الدعوة إلى النزول من على الصليب، وما كان صبره وصمته فى نظر أعدائه إلا عجزاً واعترافاً بالهزيمة، فلماذا لايدع مجده يتوهج فيخطف أبصارهم ويسكت ألسنتهم؟ ما كان أسهل عليه لو أنه فعل هذا، ولكن لا، إنه لم يكن ليفعل هذا. ولقد قالوا الصدق حين قالوا «خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها» لأنه لو خلّص نفسه لما صار مخلصاً. والقوة التى ربطته على الصليب كانت أعظم بكثير من تلك التى تلزم لنزوله من عليه. إنه لم يُمسك بمسامير قيدت يديه ورجليه أو بحبال أوثقت ذراعيه أو بسبب حراسة العسكر له. كلا! بل أُمسك هناك بربط غير منظورة، بحبال محبة فادية. إنه أُمسك هناك محصوراً بترتيب إلهى.

أما أعداؤه فلم يفهموا ولم يدركوا شيئاً من هذا كله. لقد حاكموه وأدانوه كمضل. القوة عندهم هى القوة المادية والمجد عندهم مجد الذات. والمخلص الذى تخيلوه وتمنوه مخلص سياسى وليس مخلصاً من الخطية. وحتى يومنا

- الحاضر مازال المسيح يسمع من كل جانب هذا التحدى من أفواه غير المؤمنين «انزل من على الصليب فنؤمن بك» كلمات ينطق بها غير العارفين بعدم استحقاقهم أو بجلال وعظمة حقوق الله القدوس. إنهم لايفهمون الخطية حق الفهم ولايفهمون شيئاً اسمه الكفارة ولاشيئاً اسمه الفداء. يريدون ديانة بغير صليب. يريدون مسيحية لها شكل يسر العين ولها شعائر تجول فيها الكبرياء وتصول، أما المسيحية التى تعنى الإيمان بالمسيح وحمل عاره والارتباط بقطيع محتقر يحمل نيره ويرفع رايته، فلا يريدونها بل ويرفضونها .

ولكن لن يكرم صليب المسيح قوم لم يشعروا بثقل الذنب ولم يصلوا إلى معرفة حاجتهم إليه.

[٣] نتحول مرة أخرى إلى فئة ثالثة كانت عند الصليب أقل عدداً من سابقتها

أما كانت هناك بين تلك الوجوه المتطلعة إلى يسوع المسيح - تلك الوجوه التى انعكست عليها إمارات العداوة والازدراء - نقول أما كانت بينها وجوه تستقر عليها نظراته المتنقلة بالرضا والارتياح؟

نعم، كانت هناك سوسنة بين الأشواك. ومن خلف تلك الجموع وعلى بعد وقفت جماعة من محبيه ومن نساء تعلقن به وتبعنه من الجليل. ولنذكر أسماءهن المكرمة كما حفظتها لنا صفحات الكتاب المقدس : «مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسى وأم ابنى زبدى» وكانت هناك أمه المطوبة مريم».

ولربما اتخذن تلك الجماعة موقفها على بُعد خوفاً من رؤساء الدين، وإلى جانب ذلك كانت فى قلوبهم زوبعة عاتية من الضيق والتعب. إنهم لم يكونوا

يعرفون بعد أنه ينبغى أن يقوم من الأموات، وها هو رجاؤهم ومحط آمالهم فى الزمان وفى الأبدية أيضاً، وقد تبدد وتداعى. كانوا يثقون ويرجون أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل وأنه يبقى ويملك إلى الأبد، ولكنه ها هو أمام أعينهم يموت مقهوراً معيراً. إن إيمانهم يكاد يلفظ النفس الأخير أو قل إن إيمانهم كان يحيا فقط فى شكل عاطفة المحبة. لقد أحبوه. تألموا معه. ولو أمكن لماتوا من أجله.

إن تلك الجماعة ـ من بعض النواحى ـ ربما كانت أقسى على مشاعره من وجوه أعدائه المقطبة الناطقة بالكراهية. ذلك لأ الوداد أحياناً ما يكسر القلب الذى لم تكسره المقاومات. ومع ذلك فلاشك فى أن هذه العواطف وتلك المحبة كانت له عزاءً وعوناً. إنه فى كل مراحل آلامه كان يتشدد بأن يتفكر فى الجموع العديدة التى ستستفيد مما تحمله وتألم به. وفى تلك الجماعة الحبية وجد عربون مكافأته ـ عربوناً رأى فيه من تعب نفسه وشبع.

فى هذه الجماعات الثلاث يمكننا أن نرى حالات ثلاثاً غالباً ما تستولى على الأذهان.

فى جماعة العسكر الرومان نجد فتور الإحساس والبلادة والجمود.

وفى جماعة شيوخ السنهدريم نجد النفور والكراهية والصدود.

وفى جماعة الجليليين نجد العطف ورقة القلب الودود.

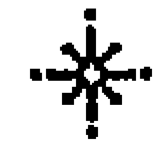
فهل سألنا أنفسنا مرة فى أىٍ من هذه الجماعات كنا نكون لو أننا وجدنا هناك من حول المصلوب؟ هذا سؤال فاحص، وطبعاً من السهل الآن أن نقول أى الجماعات كان على صواب وأيها كان على خطأ. وإنه لأمر سهل دائماً

أن نحكم على شخصيات وعلى حوادث طواها التاريخ. ننصفها أو نحكم عليها أو لها بالعدل، ومع ذلك نكون في فتور وجمود من جهة أبطال يومنا الحاضر بل ربما ننفر من سيرتهم وننكر فضلهم.

إن يسوع المسيح لم يزل يحمل صليبه عبر شوارع هذا العالم ولم يزل تلفحه التعييرات، ومع ذلك يمكن لبعض القلوب أن تتأمل بإعجاب مسيح الكتاب المقدس ومع ذلك ترفضه مخلصاً لها.

فكثيرون يقاومون المنادين بالحق وبالمبادئ الكتابية الصحيحة والعاملين عمل الرب والمجتهدين لأجل نشر الكلمة ونور الإنجيل في ظلمات هذا الدهر. إن كثيرين يقاومون هذه الأواني بلا وعي وبلا معرفة.

على أن المسيح الحي لم يزل في العالم على كل باب يقرع وروحه القدوس يجاهد مع كل نفس. ولم يزل يلتقي بهذه الأنواع الثلاثة ـ الجمود والجحود والوداد. وكما يمر قطب المغناطيس على كومة من الأشياء فتنجذب إليه القطع المماثلة. هكذا المحبة الغافرة كما هي في المسيح تمر بين جموع البشر من جيل إلى جيل فتتحرك وتجذب قلوباً تنخلع وتلتصق بشخص المسيح الكريم. أما هذا التجاوب فقل عنه ما شئت. سمّه إيماناً أو محبة أو تجديداً أو ما يحلو لك أن تسميه. أما هو فإنه حجر الأساس في بناء الأبدية، إنه فرز رجال ونساء من كتلة الناس وجعلهم واحداً في المسيح إلى أبد الآبدين، لهم حياته وفيهم محبته.



الفصل التاسع



كلمات قيلت من فوق الصليب

الكلمة الأولى

رأينا فى الفصل السابق تأثير عملية الصلب على مختلف الجماعات التى كانت تحيط بالصليب، فلم يكن لتلك العملية تأثير ما على جماعة العسكر الرومان الذين قاموا بها . كانوا عمياناً فلم يروا مجد المشهد الذى ساهموا فيه بنصيب. وجماعة شيوخ المجمع والذين كانوا على شاكلتهم فى التفكير كان لعملية الصلب عليهم تأثير من نوع خاص فإن استعلان صلاح الله فى كماله ولمعان المجد الأدبى الذى للإنسان يسوع المسيح جعلهم يهدرون غضباً وحنقاً . وحتى جماعة الأحباء والأصدقاء الذين وقفوا من بعيد رأوا فيما كان يجرى أمام عيونهم أقل القليل من معانى الصليب. إنهم لم يروا فى نصرة سيدهم على الخطية والموت والعالم سوى مأساة محزنة وهزيمة مرة. نعم، لكى نرى حدثاً خطيراً وعظيماً، لايكفى أن يكون هناك موضوعه وأهدافه بل أيضاً يجب أن تكون هناك العيون التى بها نرى. والصورة فى المرآة تتوقف ليس فقط على الجسم المنعكس على سطحها بل أيضاً على نوع الزجاج والسطح الشفاف.

والآن نريد أن نرى مشهد الجلجثة فى شكله الحقيقى، فأين نراه؟ هناك فكر واحد انطبعت عليه صورة المشهد صادقة كاملة. آه لو رأينا صورة المشهد فى فكر يسوع المسيح نفسه - إذاً لاكتشفنا معانيها الصحيحة

واستمتعنا بألوانها الجميلة.

ماذا كانت الصورة التي انطبعت على ذهنه لما جال ببصره على مسرح الحوادث وهو معلق في وضع أليم؟ نجد الجواب في الكلمات التي نطق بها من فوق الصليب قبل أن يغشى ضباب الموت حواسه. هذه الكلمات بمثابة طاقات نتطلع من خلالها إلى ما كان يدور في ذهنه. إنها كلمات مقتضبة ولكنها مليئة بالمعاني. وما الكلمات إلا صور - في وضوحها أو غموضها - للذهن الذي نطق بها. والكلمات التي نطق بها يسوع المسيح من فوق الصليب هي أصدق وأوضح ما قيل. إنه له المجد، طبع عليها صورة نفسه فجاءت الصورة ناطقة صادقة.

هي سبع عبارات ولأجل الفائدة سنتهادى في خطونا ونحن نمر عليها. إنها أغلى من أن نمر عليها سراعاً. إن كلمات المحتضر لها وقعها وتأثيرها، وليس من السهل أن ننسى الكلمات الأخيرة لوالد أو والدة أو صديق حميم. والأجيال تحفظ عادة العبارات الأخيرة لمشاهير الرجال. وفي الكتاب المقدس نجد يعقوب ويوسف وموسى وآخرين من الآباء ينطقون على فراش الموت بنبوات ومواعيد عظمى وثمينة. وفي كل شعب تقريباً تُضفي على كلمات المحتضرين أهمية نبوية من نوع ما.

لقد تكلم أناس عاشوا على الأرض قبل المسيح وبعد المسيح بكلمات طيبة وصادقة، ولكن بكل تأكيد ما تكلم أحد قط بمثل ما تكلم به ابن الله. والمسيح ما تكلم قط بأورع وأجمل مما تكلم به من فوق الصليب.

لم يكن أمراً غير عادي أن يتكلم المصلوبون من فوق خشباتهم لكن كانت كلماتهم في العادة تأوهات أو توسلات واسترحامات أو لعنات يقذفون بها

فى وجه الله أو يصبونها على رأس قاتليهم.

ويسوع المسيح ما أن عبرت عنه الصدمة التى أحدثها غرس المسامير فى يديه ورجليه حتى نطق بكلمته الأولى التى كانت صلاة إلى الآب.

«يا أبتاه» ... ألم يكن فى هذه الكلمة حكم بالإدانة غير مقصود على أولئك الذين رفعوه وعلقوه هناك؟ إنهم باسم الدين قد فعلوا ما فعلوا، وباسم الله نفذوا حكم الصلب. وها هو ذا المصلوب يصلى إلى الله من أجلهم، فمن من الاثنين كان الدين له حافزاً ووازعاً؟ مَن من الاثنين أمكنه أن يدخل فى شركة وثيقة مع الله، شركة هادئة بلا كلفة أو تصنع؟ واضح أن الصلاة كانت اللغة الطبيعية عند يسوع المسيح، لذلك كانت أول ما جرى على شفتيه.

وواضح أيضاً أن كلمة «يا أبتاه» برهنت على أن إيمان يسوع المسيح لم يتزعزع إطلاقاً بسبب كل ما جاء عليه وكل ما تعين عليه أن يتألم به. عندما يداس الحق بالأقدام ويستعلى الباطل، هنا يجرب الإيمان عما إذا كان الله بالحقيقة موجوداً وبالحقيقة محباً وحكيماً ويجلس على عرش العالمين أم أن الأمر على العكس وكل شئ وليد الصدفة والقدر.

أيها الأحباء عندما يخلو الوفاض بعد امتلاء، وتضيق الحياة بعد سعة، وينقلب الضحك بكاء، وتنحط الآمال العريضة من عليائها فإذا بها هشيم تبعثره الريح، عند ذلك، حتى أولاد الله قد يركبون رؤوسهم ضد الإرادة الإلهية. إن قديسين عظاماً جرفهم ضغط الألم واكتسحهم تيار القنوط فتذمروا على الله بكلمات لايسوغ أن نذكرها. لكن عندما اسودت تماماً صفحة الآمال أمام يسوع المسيح، وعندما أحاط به أعداؤه مسعورين، وأحدق به الحاقدون عليه، كان لم يزل يقول **«يا أبتاه»**.

هذا هو مثال الإيمان الكامل. وكانت المكافأة مجيدة جداً.

أيها الأحباء لو قُدّر ليد الخالق العظيم أن تتخلى عن دفة هذا العالم وأن تنساق مصائر البشرية إلى بحر خضم هائج مزبد بالتشويش والفوضى، لكان أنسب وقت لذلك هو عندما سيق ذاك الذى هو كمال الجمال ليموت كما يموت سفيه أو أثيم. هل كان يمكن أن يخرج خير من مثل وهدة الشر هذه؟ إن خلاص العالم قد جاء من ههنا. وأنبل ما حوى التاريخ قد جاء من ههنا. وفى هذا أبلغ الدروس وأسماها لأولاد الله أن لايفشلوا ولاييأسوا. قد يرنو على الأفق سحاب أسود كثيف. وقد يتحطم كل شئ. وقد يبدو وكأن الشرير قد تربع على عرش الله ولكن مع كل ذلك فإن الله حى يتبوأ عرشه فوق ضجيج البحر الهائج، وقادر أن يُخرج الفجر من رحم الظلام.

«يا أبتاه اغفر لهم» وما أعظمها صلاة ـ إنها تستمطر الغفران للأعداء. وفى فصول سبقت رأينا أى نوع من المعاملة قد عُومل بها يسوع المسيح من ساعة القبض عليه حتى الآن. إن عبيد العبيد قد تطاولوا عليه بمختلف الإهانات، ورؤساء الكهنة قد عوجوا القضاء ليدينوه، وهيرودس احتقره وبيلاطس أهدر حقوقه وفرّط فيها وحثالة من الشعب رفعوا عقيرتهم ضده. ونحن لم نخفِ احتقارنا لكل أولئك واستعملنا ضدهم كلمات قاسية أما يسوع المسيح فكان رده على كل أولئك **«يا أبتاه اغفر لهم»**.

إنه له المجد وقف مرة يُعلّم الناس بقوله «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» والعالم إلى يومنا الحاضر يرى فى المبادئ الأدبية السامية التى تضمنتها الموعظة على الجبل حلماً جميلاً. لأن معلمين كثيرين علّموا بهذه المبادئ

النبيلة، لكن هناك فرقاً بين العلم والعمل وبين الأقوال والأفعال. قد يعجبك أسلوب كاتب وقد تسحرك نفحات من خواطره ومشاعره، ولكن غالباً ما لاتعرف عنه أكثر مما قرأت. ولو تعرّفت على دخيلة نفسه وخافية قلبه ورأيت بعينيك حقائق حياته، لصرت فى حيرة من أمره ولقلبت كفيك أسفاً عليه وحسرة. لكن يسوع المسيح عَمل بما علّم به وفعل ما كان ينادى به. هو المعلّم الواحد والوحيد للجنس البشرى الذى فيه اتفق وتوافق الشعور والعمل ـ القول والفعل. كان تعليمه أعلى وأسمى من أن يقدم لهذا العالم، وكم كان عالياً جداً وسامياً جداً لما رأيناه مترجماً عملياً.

قليلون منا يعرفون ما هو الغفران. والبعض منا ربما خلت حياتهم منا إساءات المسيئين أو على الأقل لم يضاروا من الغير بسوء بالغ. أما الذين مسّهم الضر على أيدى الحاقدين فهم الذين يعرفون كم هو صعب أن يغفروا للمذنبين إليهم. قد لايوجد ما هو أصعب من الغفران. إن الانتقام أحلى أطايب القلب الطبيعى، وناموس العهد القديم، كان على الأقل من الناحية العملية «تحب قريبك وتبغض عدوّك». وحتى قديسو العهد القديم لعنوا أولئك الذين اضطهدوهم وأساءوا إليهم بعبارات واضح فيها التشفى والقسوة. ولو أن يسوع المسيح فعل كذلك من كان يجرؤ على لومه؟ لكنه كان فى كل حياته يعلن طبيعة الله. وها هو الآن فى آخر لحظات حياته، وها هو يعلن صفات الله فى أعلى علوها.

فى كل حياته كان الآب فيه. والآن على الصليب كانت الحياة والصفات الإلهية يتقد لهيبها فى طبيعته الإنسانية كما اتقدت نار الله فى العليقة الخضراء. كانت الحياة والصفات الإلهية ناطقة تقول **«يا أبتاه اغفر لهم»**

إنها كانت تعلن أن «الله محبة».

أردف المخلص المتألم هذا القول بعبارة « **لأنهم لايعلمون ماذا يفعلون**» وهى عبارة تجعلنا نتأمل أكثر فى أعماق محبته الإلهية. إن المجنى عليه عادة لايرى القضية إلا من جانبه هو، ولا يرى فى ظروفها إلا أدلة الإدانة ضد الطرف الآخر. ولكن فى الوقت الذى كان أعداؤه يوجعونه بالإساءات نرى يسوع المسيح يتلمس لهم المعاذير.

ولقد نوقشت هذه العبارة وفى صددها تساءل المتسائلون عن مدى انطباق العذر الذى تلمسه لهم يسوع المسيح. هل يمكن أن يقال عنهم جميعاً أنهم «لايعلمون ماذا يفعلون»؟ هل كان يهوذا لا يعلم؟ هل كان رؤساء الكهنة لايعلمون؟ هل كان هيرودس لايعلم؟ فى الظاهر ومبدئياً كان الرب يسوع يقصد بعبارته هذه العسكر الرومان الذين قاموا فعلاً بعملية الصلب، لأنه حسب رواية البشير لوقا قال الرب عبارته هذه فى أثناء قيامهم بعملية الصلب. وفى الواقع كان العسكر وهم الأداة الخشنة الغاشمة فى يد الحكومة، الأقل ذنباً بين قاتلى يسوع المسيح. وإربما جاء بعدهم فى الترتيب بيلاطس ثم تفاوتت بعد ذلك الدرجات نزولاً من هيرودس إلى شيوخ السنهدريم إلى يهوذا الحقير. لكن بطرس فى بداية سفر الأعمال فى وضوح صريح يسحب ذيل الجهل حتى يغطى شيوخ المجمع أيضاً «والآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضاً» ومن ذا الذى يصدق أن قلب المخلص كان أقل إدراكاً من قلب بطرس؟

أيها الأحباء لاتضعوا حدوداً لرحمة الله. إنه لصحيح إلى درجة ما أن الخاطئ لايعرف ماذا يفعل، وفى هذا بعض العزاء للقلب التائب. وبولس

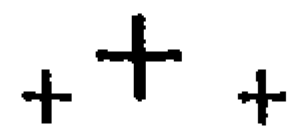
التائب يقول «لكنى رُحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان» والله يعرف كل ضعفنا وغباوتنا. إنه يقدر على كل شئ ويعرف كل شئ وليس لنا ملاذ كخطاة إلا حضنه الدفئ.

وطبيعى أن هذا الحق يمكن أن يمسخ بواسطة هوى القلب غير التائب. ولايوجد ما هو أخدع وأغش من ذلك، لأن معنى ذلك أن الإنسان ليس إلا وليد الظروف ولا مسئولية على أفعاله. ولكن ما أبعد فكر الرب يسوع عن هذا بدليل قوله «اغفر لهم». إنه قد علم أنهم فى حاجة إلى الغفران، وحاجتهم إلى الغفران تتضمن مذنوبيتهم. إن إدراكه الكامل لمصيرهم الذى تدفعهم إليه ذنوبهم جعله ينسى آلامه ويدفع بنفسه ليقف بينهم وبين مصيرهم الرهيب.

كذلك قيل «هل استُجيبت صلاة يسوع المسيح هذه؟ » هل غُفر للذين صلبوه؟ وعلى هذا السؤال يُرد بأن الصلاة لأجل الغفران لايمكن أن تُستجاب بدون تجاوب من الذين قدمت الصلاة من أجلهم. فإذا لم يتوبوا ويطلبوا الغفران لأنفسهم كيف يمكن لله أن يغفر لهم؟ وإذن فمعنى صلاة المسيح لأجلهم هو أن تُعطى الفرصة للتوبة وأن تُتاح الفرصة أمامهم ليسمعوا الكرازة ولتستيقظ ضمائرهم. ولو أن الله عاقب على فعلة نكراء كجريمة الصليب لشق الأرض وجعلها تبتلع الجناة أحياء. لكن لم يحدث شئ من ذلك. إن أورشليم تجرعت مرارة لاتوصف كما تنبأ عنها المسيح، لكن كان ذلك بعد أربعين سنة فيها انسكبت ينابيع النعمة ودوى صوت الكرازة وترددت أصداء بوق الإنجيل فى كل مكان ابتداء من أورشليم، وآمن كثيرون. بل قُبيل أن يسدل الستار على مشهد الجلجثة آمن واحد من اللصين

المصلوبين، كان قد اشترك مع زميله فى تعيير السيد المسيح. وقائد المئة اعترف أنه بالحقيقة ابن الله. وجمهور كبير رجعوا من مشهد الجلجثة يقرعون صدورهم. إذن لسنا نشك فى أن صلاة المسيح بمعناها الذى ألمعنا إليه قد استُجيبت بسخاء.

وهل لنا أن نضيف إلى هذا الجواب، تكرار الإجابة من جانب الله جيلاً بعد جيل استجابة لتكرار الصلاة أيضاً جيلاً بعد جيل ابتداء من استفانوس ومئات بعده تبعوه؟ وكم خففت صلاة كهذه على مدى الأيام من مرارة الآلام وزادت على مدى الأيام من قدر المحبة فى هذا العالم المسكين.



الكلمة الثانية

لسنا نعرف بأمر مَن قد تعين أن يُصلب يسوع المسيح بين اللصين. ربما أمر بذلك بيلاطس إمعاناً فى إغاظة اليهود بتحقير ملكهم. ولربما أراد ذلك شيوخ اليهود أنفسهم الذين تبعوا المسيح إلى مكان التنفيذ وأملوا مشورتهم على العسكر إمعاناً فى إهانته. ولربما فعل العسكر هذا من أنفسهم لمجرد اعتبار المسيح الشخصية الأهم بين المصلوبين الثلاثة.

على أية حال كانت الفكرة وليدة البغضة والخبث؛ ومع ذلك كان فيها قصد إلهى. كان فكر الله من وراء غضب الإنسان. ولا يسعنا من حين إلى آخر إلا أن نقول إن كل كلمة صعبة أو فعلة بشعة صوبت نحو يسوع المسيح فى تلك المشاهد الأخيرة من حياته، بقصد إساءته وتحقيره، عادت - على عكس ما أريد بها - بلمعان يُضفى نوراً ومجداً على شخصه الكريم. إن إكليل الشوك والثوب الأرجوانى، وكلمة بيلاطس «هوذا الإنسان»، والعلة المكتوبة فوق الصليب، وتقريعات المتفرجين، وغير ذلك كثيراً من التفاصيل الصغيرة والتى كانت فى ذلك الوقت تنم عن حقد وغل - هذه كلها الآن ذكريات عزيزة مخزونة فى قلوب الأتقياء.

إذن كان وضعه وسط اللصين أمراً مرتباً بيد الله كما كان بيد الناس. وإنه لوضع سليم. لقد قالوا عنه قبل ذلك إنه «محب للعشارين والخطاة» والآن وقد صلبوه بين لصين قد عبروا عن نفس الفكرة بالفعل أيضاً. لقد

ترجموها عملياً. وكما صار ذلك اللقب وسام فخر أبدى له هكذا تلك الفعلة الشائنة أيضاً. إن يسوع المسيح قد جاء إلى العالم لأجل الخطاة. لقد جعل من قضيتهم قضية له. عاش بينهم، وكان من اللائق أن يموت بينهم. وإلى هذا اليوم يتعامل مع الخطاة، وموقف كل من اللصين إزاءه كان صورة لما حصل وسيظل حاصلاً على مدى الزمن. وبعض الخطاة آمنوا به وخلصوا بينما آخرون لم يؤمنوا. وإنجيل المسيح لفريق منهم رائحة حياة لحياة، وللفريق الآخر رائحة موت لموت. وهكذا الحال إلى المنتهى.

على أن الحكمة الإلهية لم يكن هدفها الأوحد من وراء سيطرتها على سير الحوادث أن تبرز يسوع المسيح وسط الخطاة والأثمة، بل أفسحت أيضاً له المجال ليبين في لحظاته الأخيرة عظمة وتفرد صفاته وطبيعة رسالته. وكما أن مثل الابن الضال خلاصة وافية لإنجيل المسيح، هكذا خلاص اللص على الصليب هو خُلاصة مصغرة لرسالة حياة المسيح.

لقد اشترك اللصين في تعيير المسيح، مقلدين في ذلك شيوخ السنهدريم. ما أتعس حالة الشر التي تردى فيها ذانك اللصان وهما على شفا النهاية. وما أتعسهما وهما يهدران بكلمات التعيير ضد متألم يقاسي نفس آلامهما وعارهما إذ أن شدة الألم تجعل الشخص المصلوب مستهيناً بأي كلام يصدر منه.

إن الوحش الذبيح يحرّق أنيابه ضد أي شخص أو أي شئ يقترب منه. هذه كانت حال اللص غير التائب. أما اللص الآخر فقد نفر نفوراً من رفيقه. إن الخطية في بشاعتها تمثلت أمامه. ولأول مرة رأى تعاسة مصيره كخاطئ. إنه رأى شقاوة نفسه في ضوء ما كان عليه يسوع المسيح من صبر

ووداعة وسلام نفسى. إلى تلك اللحظة كان زميله الفاجر هو مقدامه ومصدر إلهامه، لكنه الآن يرى ما أحط شجاعته الشرسة إذا قيست بقوة احتمال المسيح الهادئة.

كثيرون أرادوا أن يعللوا هذا التغيير الفجائى فى حياة اللص، وفى ذلك ذهبوا مذاهب شتى، كلها من وحي التخمين، وقالوا لابد أن كانت لهذا اللص فرص سابقة تلاقى فيها مع ربنا يسوع المسيح. لكننا نتمشى مع المنطق السليم إذا عولنا على ما رآه اللص فى تصرفات يسوع المسيح على الصليب. لقد رآه وديعاً وقوراً صامتاً وصبوراً. لقد رأى وجهه النبيل وهو يصلى من أجل أعدائه كما سمع صيحات الجمهور حول الصليب وهم يقذفونه بتقريعات التحدى. ولعله سمع قبل ذلك أخبار المحاكمة أمام بيلاطس. أما أن نذهب إلى أبعد من ذلك فليس لدينا الدليل الكافى على صحة ما يقال. هل سمع المسيح يكرز؟ هل عاين واحدة من معجزاته؟ وما مبلغ علمه بطبيعة ملكوت المسيح الذى تكلم عنه؟ هذه أسئلة يمكن أن يُجاب عليها من قبيل الحدس والتخمين لكن بلا سند كتابى أصيل. ربما يقال أن هذا اللص نشأ فى بيئة دينية تقوية، وربما يقال أنه ضل سواء السبيل بتأثير المعاشرات الرديئة خصوصاً عشرته برفيقه الغليظ القلب المعلق الآن إلى جواره. وكما كانت عند صليب المسيح أم باكية، ربما كانت عند صليب هذا اللص أم كسيرة القلب تصلى من أجله، وصلاتها على وشك أن تُجاب بشكل يفوق كل ما تمنت أو طمعت فيه.

وأية غرابة فى هذا التجديد الفجائى؟ هل نستغرب إن كان واحد من القراء يسلّم نفسه وقلبه لله قبل أن يقلب هذه الصفحة؟ كما قد يحدث أيضاً

أن الله يمهد طريق الخلاص أمام نفس لعدة سنين مضت ثم يجئ الميعاد المناسب لاقتبال الحق والخضوع له. نعم ماذا كان القصد من وراء كل ما تعلمته في مدارس الأحد في الطفولة؟ وما نتيجة كل ما سمعته من تحذيرات وتحريضات؟ وأين ذهبت كل الطلبات والصلوات التي رفعت من أجلك؟ وأية نهاية انتهت إليها مجاهدة الروح القدس مع نفسك؟ إن كانت خاتمة هذه كلها قبولك الحق وخضوعك لسلطان كلمة الله وانطلاقك من قيود الخطية إلى رحاب حياة جديدة فهل في هذا كله تجديد مفاجئ؟ إنه آخر المراحل التي بدأت أولاها منذ عهد طويل. ومع ذلك فإن عنصر المفاجأة ملحوظ في الأمر. فإن استيقاظ النفس وتفتح العينين على النور ونهوض المشاعر الدينية في داخلنا يتم دفعة واحدة رغم طول مجاهدة وسائط النعمة.

على أننا لانريد أن تمر بنا هذه الحادثة دون أن نقف متأملين فيما تضمنته من شهادة لامعة لنعمة الله. حقاً ليس من حدود لدعوة المخلص «من يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً» ومهما تأخر مجئ الخاطئ أو مهما ضاقت الفرصة التي فيها يجئ، فليأتِ وليُقبل إلى الفادى وليثق أنه لن يطرح خارجاً. إن كان الخلاص للخاطئ والأثيم يأتي نتيجة لبرنامج تهذيبي وأدبي فماذا يعمل لمثل هذا اللص؟ إننا إن لم نستطع أن نقدم لخاطئ على حافة الموت خلاصاً مفرحاً ومبهجاً وكاملاً فنحن إذن لانعرف على الإطلاق خلاص الله الحقيقي. وما أكمل هذا الخلاص الذي حصل عليه اللص التائب، تدل على ذلك كلماته التي نطق بها. والرسول بولس يلخص المسيحية في أمرين : هما التوبة لله والإيمان بربنا يسوع المسيح. وهذان الأمران نجدهما في كلمات اللص التائب. لقد وضحت توبته فيما قاله لزميله «أوَلا أنت تخاف الله

إذ نحن تحت هذا الحكم بعينه؟» إنه فى ماضيه نسى الله ولكن الآن يجد الله قريباً منه، وفى نور الله رأى آثامه وذنوبه واعترف بها ليس سراً بل جهراً وبذلك انتزع نفسه من ذلك الماضى وأفرز نفسه من تلك الآثام، كما انفصل عن رفيقه الذى شاركه فى الضلال لما لم يُرِد ذاك الرفيق أن يصحبه فى طريق التوبة. كما لم تكن كلماته للرب يسوع أقل بياناً وإعلاناً عن إيمانه به. إنها كلمات جمعت بين البساطة والتواضع. إن كل ما جرؤ على التطلع إليه هو أنه عندما يجئ الرب يسوع فى ملكوته يتذكره. كلمات تعترف بمجد المسيح كما تعبر عن الثقة فيه فى ذلك الوقت الذى ظن فيه رؤساء الدين اليهود أنهم قضوا قضاءً تاماً على دعوة يسوع المسيح، وحتى تلاميذه أيضاً تركوه، نجد هذا اللص المسكين يعترف به رباً وملكاً. قال «كلفن» : «ما أجلى هذه البصيرة التى استطاعت أن ترى الحياة فى الموت والجلال فى الأطلال، والمجد فى العار، والنصر فى الهزيمة والأسر، وحقاً أتساءل عما إذا كان منذ بدء العالم قد وُجد مثل هذا الإيمان الوهّاج». ولم يكن «لوثر» أقل بياناً عندما قال «كانت كلمات اللص للمسيح عزاءً مشجعاً كخدمة الملاك له فى البستان. والله لم يدع ابنه محروماً من الأتباع، وحيث تداعى إيمان بطرس تشامخ إيمان هذا اللص التائب». وقال آخر «هل حصل على الإطلاق ميلاد فى مثل هذا المهد العجيب؟».

هل تكلم يسوع المسيح مع اللص فتجدد؟ كلا. إن الرب يسوع لم يوجه كلمة واحدة إليه قبل أن ينطق هو بكلماته. إن عمل التبكيت والإقناع تم قبل أن يقول شيئاً. ومع ذلك فإن العمل عمل الرب وحده. وكيف عمله؟ إننا نجد الجواب فى المثال الذى تكلم به الرسول بطرس للنساء التقيات لكى يربحن

أزواجهن الوثنيين «كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لايطيعون الكلمة يُربحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف». إن يسوع المسيح بتأثير صبره وسيرته وسلام نفسه وعظمة صفاته ربح ذلك الرجل. وفى هذا ترك لنا مثالاً لكى نتبع خطواته.

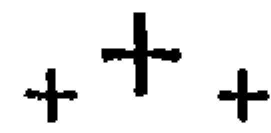
وكلمات الرب جواباً على طلبة اللص زادت من تأثيره. كانت كلمات قليلة لكنها أعلنت عظمته كمخلص. كان اللص يترجى الخير فى يوم بعيد عتيد. لكن المسيح قال له « **اليوم** » وهذه الكلمة وحدها كانت نبوة عن موته الذى كان سيتم فى نفس اليوم وليس بعد أيام كما كان يحدث عادة للمصلوبين. وقد تمت هذه النبوة. لكن كانت الكلمة أيضاً وعداً لهذا اللص أنه إن اختطفه الموت من الزمان إلى الأبدية فإن الرب يسوع سيكون فى انتظاره لاستقباله «**اليوم تكون معى**» هذه هى السماء بعينها !! وماذا نعرف نحن عن السماء؟ وماذا نريد أن نعرف سوى أن نكون «مع المسيح»؟ والرب يضيف إلى هذه العِبارة كلمة صغيرة «فى الفردوس». كلمة فيها كل معانى البراءة والجمال والسلام حيث يبدأ اللص بعد أن غُسل وطهر من نجاسات الماضى وأوزاره وجوداً جديداً كخليقة جديدة.

إن بعضاً من المسيحيين يعتقدون أن أقصى ما يمكن أن يترجوه لنفس لها مثل تاريخ هذا اللص أن تبدأ بالدخول إلى نيران المطهر. ولكن ما أبعد نعمة الرب يسوع عن فكر كهذا. ما أكمل وأعظم عمله الفدائى الذى فيه لنا خلاص كامل.

إن هذه الكلمة الثانية التى قيلت من فوق الصليب يتفجر منها نور مجد

المخلص. إن اللص فى أدق وأخطر لحظات حياته يخاطبه كملك ويلتمس منه طلبه كإله، فكيف أجابه يسوع المسيح؟ هل قال له «لا تصلِّ إلىَّ لأنى إنسان مثلك؟ ولست أعلم عن العالم الآخر الذى سننطلق إليه أكثر مما تعلم أنت؟» هذا ما كان يمكن أن يجاوب به لو أنه لم يكن أكثر مما يريد البعض أن يصوروه به. لكنه قد قبل توسلات المتوسل وتكلم عن العالم الآخر كوطن معروف له، وجعل اللص يفهم أن له فى دوائر ذلك الوطن من السلطان ما يتفق واعتقاده فيه.

لقد وضع ذلك اللص على المسيح كل ماضيه وأثقال خطاياه كما وضع بين يديه كل أبديته وما تمناه وترجاه، والمسيح قبل الكل وأعفاه وأغناه.



الكلمة الثالثة

فى حياة ربنا يسوع المسيح من أولها إلى آخرها نجد مزيجاً عجيباً من العظمة والاتضاع. فإذا ما لمع شعاع من أمجاد لاهوته مضيئاً مبرقاً لا نلبث أن نراه إنساناً مثلنا من لحمنا ومن عظمنا. وبالعكس إذا ما بدا فى صورة تذكرنا بإنسانيته لا نلبث أن نراه أبرع جمالاً من كل بنى البشر. عند مولده أُضجع فى مزود، وفى نفس الوقت كان جمهور من الملائكة يتغنون بتسبيحه على مراعى بيت لحم. مرة كان نائماً فى مؤخر السفينة، مستغرقاً فى النوم من التعب، بينما تعاظمت الأنواء حول السفينة حتى كادت تغرق فأيقظوه، وفى الحال انتهر الريح والبحر فصار هدوء عظيم. مرة رأى مرثا ومريم تبكيان فبكى وبعد لحظات قال بصوت عظيم «لعازر هلم خارجاً» فأطاعه القبر والموت وخرج الميت إلى الحياة. وهكذا إلى نهاية تلك الحياة العجيبة. ولقد رأيناه فى الكلمة الثانية التى قالها من فوق الصليب يفتح أبواب الفردوس أمام لص تائب، واليوم فى الكلمة الثالثة نراه الابن الذى يقدّر الأمومة، وفى ساعة موته يهتم بأمه ويرعى حقها الواجب.

جالت عينا يسوع المسيح بين الجموع المحشودة حول صليبه واستقرت على أمه الحبيبة الحزينة التى وصفتها بحق ترنيمة العصور الوسطى الرائعة التى تعرف باسم «Stabat mater»[٤] والتى لحنها أعاظم الموسيقيين

---

(٤) Stabat mater (الأم كانت واقفة) هى الترنيمة المؤثرة المعبرة عن =

أمثال هايدن وروسيني ومنها :

بين الجموع ...
أم بالدموع ...
جاءت إلى جذع الصليب ...
تحت ثقل السنين ...
وفي الحشا أنين ...
رأت قطعة منها تذوب ...
رأت جنبه والجبين ...
ينزف الدم الثمين ...
ورأت شمسها تغيب ...

تلك هي التي في أيام شبابها عندما حملت على ذراعيها وليدها فخورة - كأي أم تفخر بأمومتها - وقدمته إلى سمعان الشيخ، سمعت أذناها كلاماً نبوياً غريباً : «وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف» ولعلها في أيام شبابها الحلوة كانت تفكر فيما عسى أن تعنيه هذه النبوة. ولكنها الآن عرفت كل شئ لأن السيف يخترطها طعنة بعد طعنة.

إن من أصعب الأمور على الأم أن ترى ابناً لها يموت. ومن الطبيعي أن ترجو أن ابنها - خصوصاً ابنها البكر - هو الذي يواري جثمانها في القبر. ويسوع المسيح كان في الثالثة والثلاثين من عمره. ومريم لاشك أنها بلغت

= آلام العذراء مريم عند الصليب وقد كتبها باللاتينية الشاعر جاكوبون داتودي، في القرن الثالث عشر ونقلت إلى اللغات الأخرى ومازالت تعرف باسمها القديم (المعرب).

الآن السن التى فيها تركن كل أم إلى رعاية ابن وفيّ مُحب. والأصعب من كل شئ أن يموت أمام عينيها معلقاً على خشبة كما يموت السفهاء. وما أكثر ما عانت أمهات من الطريقة التى بها مات أولادهن ولكن ما آلام الأمهات جميعاً إذ قيست بآلام مريم؟ إنها تراه يموت وهى تعجز عن مواساته. دماؤه تنزف وهى لاتجرؤ على تجفيفها. ييبس حلقه وهى لاتستطيع أن تبلله بقطرة ماء. كم من مرة طوقت هاتان الذراعان المبسوطتان عنقها؟ وكم مرة أدفأت بيديها الرقيقتين قدميه ويديه المثقوبة الآن؟ إنها تحس وخزات المسامير كما أحس بها هو، والأشواك التى طوقت رأسه كانت غلالة من لهيب حول قلبها هى، وتعبيرات المعيرين جرحتها كما جرحته.

ولكن هناك ما هو أمرّ. لقد أغمد السيف حتى الأعماق. آه لو لم يقل لها الملاك قبل مولده «هذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولايكون لملكه نهاية». تلك العظمة، ذلك العرش، هذا الملكوت. أين كل هذا الآن؟ مرة أحست أنها المطوبة بين النساء عندما احتضنته طفلاً وليداً بين ذراعيها وسجد أمامه الرعاة والمجوس، وعندما عرفه سمعان وحنّه كمسيّا. ثم جاءت فترة طويلة عاشها فى الناصرة بلا شهرة ولاصيت، لم يكن يُعرف فيها إلا كنجار القرية. لكنها لم تفقد الأمل. كان معها فى بيتها وكانت تثق أن العظمة والعرش والملك جميعاً ستأتى فى الميعاد. ثم دقت الساعة حين ترك أدوات النجارة كما ترك الناصرة ليخرج إلى الدنيا العريضة من حوله. وترامت إلى مسامعها أخبار كلمات النعمة المنسكبة على شفتيه وأعمال قواته المعجزية، وتقاطر الجموع إلى حيث يذهب أو يكون. ها أن العمى والعرج والمرضى

والثكالى يطوبونه من أجل العافية التى ردها إليهم فأبهج حياتهم بعد العبوسة واليأس. ولكنها سمعت أيضاً عن مقومات واضطهادات ووعيد ومؤامرات. إن قلبها يخفق إشفاقاً. وها هو بين أيدى أعداء قساة إنه على صليب يذوق الموت جرعة جرعة، والعظمة والمجد والملك جميعاً كأنها أضغاث أحلام.

ما معنى هذا؟ هل خدعها الملاك؟ وأين تتميم وعد الله؟ أما نحن فنعرف تفسير هذا كله الآن. إن يسوع المسيح كان فى طريقه إلى مراقى عرش أعلى وأرفع بكثير مما كانت تستطيع مريم أن تتصور. كان الصليب هو الطريق الوحيد إلى هذا العرش الرفيع. ومريم فهمت هذا بعد أسابيع قليلة، لكنها الآن جريحة النفس فى ظلمات أمل ينهار، والجرح عميق والسيف بتّار.

كانت واقفات عند صليب يسوع المسيح مريمات أخريات غير العذراء. وفى هذه المناسبة برهن الجنس الأضعف على أنه هو الأقوى. عندما هرب الرسل وتركوا سيدهم، كان تعلق هؤلاء النسوة بيسوع المسيح صادقاً إلى النهاية. ولعل جنسهن هو الذى كفل حمايتهن، والنساء فى بعض الأحايين وفى بعض الأماكن يجرؤن على ما لايقدر عليه الرجال. وهذه إحدى إمكانيات المرأة، وكثيرات استخدمنها استخداماً جليلاً ونافعاً.

لكننا لا ننسى هنا رجلاً لم تكن له مثل هذه الحماية، وخاطر بنفسه ووقف معهن عند الصليب. إنه يوحنا الحبيب. لقد تركه الجميع ومن بينهم يوحنا ولكنه الآن يعود ليلازم سيده. وكان هو الوحيد من الاثنى عشر، ولعل صلته برئيس الكهنة التى خولت له الدخول إلى قاعة المحاكمة قد مكنته الآن

أيضاً من الوجود عند الصليب. لكننا لا ننسى أن نذكر قبل كل شئ أن ولاءه وإخلاصه للسيد هو الذى دفعه إلى ذلك المكان. ذلك الذى كان يتكئ على صدره لم يستطع أن يبقى بعيداً عنه مهما كانت خطورة الموقف ولقد كوفئ إذ أتيحت له فرصة القيام بآخر خدمة ليسوع المسيح المتألم. وأخذ منه علامة ثقة غالية لاشك أنه اعتز بها كامتياز تشرّف به.

لكننا نريد أن نعرف شيئاً عن تأثير هذا الموقف على يسوع المسيح نفسه. لقد استقرت عيناه على أمه فى وقت كان فيه يعانى ذروة الألم. كانت آلامه كافية لأن ينسى فى سعيرها كل شخص من حوله. إن كان قد صلى من أجل أعدائه فهذا من صميم رسالته. وإن كان قد اهتم بلص تائب فهذا أيضاً يتفق وعمله كمخلص، لكننا نعجب إن رأيناه فى ساعة كهذه يكرس بعض وقته ليهتم بأمور عائلية من متعلقات الحياة العادية.

إنه فى حياته لم يكن يسمح لإنسان ما ـ ولو كان هذا الإنسان هو أمه ـ أن يتداخل فى مشوراته وتدبيراته. لكنه الآن يرينا أنه وإن لم يكن يسمح بذلك إذا كان التدخل غير مشروع، فهو أيضاً لم يغفل قط مطاليبها الواجبة وحقوقها المشروعة. ورغم عظمة شخصه وعظمة الرسالة التى أنجزها فإنه لم يزل يذكر أنها أمه بالجسد وكان يكن لها أكرم المشاعر وأنبلها.

ومع أن كل كلمة قالها وهو فى ذلك الوضع الشاق كانت تكلفه من الجهد والألم الشئ الكثير، لكنها على قلتها كانت كل منها تؤدى رسالتها كاملة.

كانت آخر وصية وآخر عهد فيما يختص بأمه ما قاله لها «**يا امرأة هوذا ابنك**» ثم ما قاله ليوحنا «**هوذا أمك**» فى كلمات قليلة وبسيطة أودع معانى كثيرة وعميقة قد يبدو فيها توجيه وتكليف، ومع ذلك فهى تفيض بالمحبة

المترفقة الواثقة من نحو مريم ويوحنا على السواء.

يُظن أن يوسف كان قد مات قبل ذلك، ولاشك أن الرب يسوع كان يعنى بأمه. ولكنه الآن سيتركها أيضاً وستبقى الأرملة بلا سند. من أجل ذلك هو الآن يدبر لها الأمر. لم يكن ذا مال فيتركه لها. كل ما كان يملك على الأرض كانت ثيابه التي غنمها العسكر الرومان. لكن من امتيازات الذين هم أنفسهم فقراء ولكنهم يغنون كثيرين أنهم بالحق والصلاح يكسبون أصدقاء يتمنون ويفخرون أن يخدموهم وأن يخدموا ذويهم. ولما عهد يسوع المسيح بأمه إلى يوحنا كان يعلم أن العبء سيُقبل كتشريف وليس كتكليف.

أما لماذا لم تذهب إلى بيت واحد من «إخوته» الآخرين فهذا مما تصعب الإجابة عليه. ربما كانوا فى ذلك الوقت غير مؤمنين وقد آمنوا فيما بعد لكن ربما كانت هناك من الأسباب الأخرى ما لانعلمه نحن.

وعلى أية حال كان اختيار يوحنا لهذه المهمة اختياراً موفقاً، ويُظن أنه كان في بحبوحة من العيش أكثر من سائر التلاميذ وهذا أمر له وزنه عند يسوع المسيح. إذ لايرسل أمه إلى حيث تشعر هى نفسها أنها عبء على الغير. ولعل السبب الأقوى هو أن يسوع المسيح قدّر أن من بين التلاميذ لايوجد من يستطيع أن يعنى بأمه أكثر من ذاك الذى كان يتكئ على صدر ابنها.

كان يوحنا ومريم من روح واحدة، كان كلاهما واحداً فى الشعور الحبى من نحو المسيح. والرب يسوع أكرم كلا منهما فى عين الآخر بأن أعطى أحدهما للآخر بمثل هذه الصورة. وإن كان الرب قد أعطى مريم فخراً لما أعطاها يوحنا ليكون ابنها، فقد أعطى أيضاً يوحنا فخراً لما أعطاه مريم أماً

له، لأن والدة كمريم ما هى إلا زينة تجمّل المكان الذى تنزل فيه. بل إلى جانب ذلك ألم يُغمر يوحنا بفضلٍ من نوع خاص إذ جعله الرب فى منزلة الأخ له يحل محله كابن مريم؟

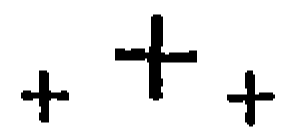
يقول البشير يوحنا «من تلك الساعة أخذها إلى خاصته». وقال بعض التقليديين أنهما عاشا معاً فى أورشليم اثنتى عشر سنة، وبعد موتها ترك أورشليم للكرازة فى أفسس ونواحيها.

ليس صعباً أن نقرأ الدرس الذى يتضمنه هذا المشهد. إن يسوع المسيح من فوق منبر الصليب ألقى عظة الأجيال عن الوصية الخامسة.

كان قلب أم يسوع جريحاً بسبب آلامه لكن كان هناك شئ واحد يعزيها هو أنها تعرف أنه كان بريئاً. كان دائماً طاهراً نبيلاً صالحاً وكان لها أن تفتخر به حتى وهم يسمرونه إلى الخشبة. إنها لم تشعر قط بالمرارة التى تشعر بها أى أم ترى ابنها يموت بسبب فعلة أو خطية ارتكبها.

إن المرارة هنا أقسى من غُصص الموت. وما أجمل أن تتحلى أم باسم ابن لها نجح نجاحاً شريفاً فى الحياة، فيامن لكم آباء وأمهات ليكن لكم هذا الدرس حافزاً ووازعاً على حياة الترفع والسمو، وقد أعطى للبعض امتياز العناية بالوالدين فى الكبر، والحق ليس فى هذا العالم ذكرى أحلى مذاقاً من ذكريات ممارسة هذا الامتياز «إن كانت أرملة لها أولاد أو حفدة فليتعلموا أولاً أن يوقّروا أهل بيتهم ويوفوا والديهم المكافأة لأن هذا صالح ومقبول أمام الله ... وإن كان أحد لايعتنى بخاصته ولاسيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن».

لكن هذه العظة من على منبر الصليب لها نطاق أوسع. إنها ترينا ربنا ومخلصنا مشغولاً بنا وبأعوازنا الزمنية والروحية، حتى وهو يكفر عن الخطية كان يتفكر فى راحة أمه الثكلى. فليتشجع وليتعز المحرومون والمحتاجون فى هذه الحياة بواسطة درس كهذا. وليتعلموا أن يلقوا كل همهم عليه وهو يعولهم. إن كثيرات ممن تُركن فى هذه الحياة بلا عائل أخرجن إلى الحياة رجالاً ونساء أفضل بكثير ممن كان لهم ولى يرعاهم أو أب يسندهم. ولعل السبب هو أن الله تمم لهم وعده أن يكون أباً لليتيم وزوجاً للأرملة، وأنهم لم ينسوا من ذاك الذى فى غمرة آلامه تذكر أمه.



الكلمة الرابعة

يمكن أن نقسم الكلمات التى قيلت من فوق الصليب إلى مجموعتين: ففى الكلمات الثلاث الأولى وهى صلاته من أجل صالبيه، وكلمته للص التائب، وتوجيهاته فى خصوص أمه، كان ربنا يسوع يهتم بما هو للآخرين. أما فى الأربع الكلمات الأخيرة فكان يهتم بما يخصه.

ويبدو كأن فترة من الزمن قد مرت بين هاتين المجموعتين من الأقوال. ومن الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة كان يسوع صامتاً. وأثناء هذه الفترة كانت ظلمة على كل الأرض. ولايمكننا بحال أن نعلل فى يومنا الحاضر طبيعة هذه الظاهرة الطبيعية على وجه التحديد، غير أن ثلاثة من البشيرين يذكرونها بأسلوب يشعرنا أن الطبيعة بصورة ما كانت وكأنها تشارك باريها المتألم، كأن الشمس قد أبت أن ترسل بصيصاً من نور على تلك الفعلة البشعة. ويمكن أن نقول أن تلك الظلمة التى بسطت ظلالها على المشهد قد أسكتت الأصوات من حول الصليب إلى أن دوت فى جوف هذا الصمت صرخة عظيمة من المصلوب قائلاً «**إلهى إلهى لماذا تركتنى؟**» عبارة فيها سؤال، وفيها أنين، وفيها أيضاً نصر مبين.

فى تلك الساعات الثلاث الصامتة ماذا ياترى كان يدور فى خلد السيد المسيح هل كان فى نشوة الشركة مع الآب السماوى؟ إن من الشهداء

القديسين كثيرين انتشوا فى ساعتهم الأخيرة من حياتهم وحلقوا فى دوائر علوية أنستهم عذاباتهم واستطاعوا أن يترنموا وهم فى لهب الاستشهاد، أما يسوع المسيح فلم تكن هذه حاله. إن هذه العبارة التى نطق بها وشق بها حجب الصمت المظلمة كانت خارجة من أعماق الحزن. حقاً إنها أمرّ صرخة شقت أجواز هذا الفضاء، ما سمعتها أذن مرهفة الحس إلا وسرت بسببها رعدة فى البدن. ولا توجد فى كل الكتاب المقدس عبارة أخرى تماثلها فى صعوبة تفسيرها وشرحها. ومثل هذه العبارات البعيدة المدى العميقة المعنى هى التى تجنى من وراء المجاهدة فى استيعاب معانيها أجزل الفائدة، عندما نجتهد ونتعب ونسرف فى الجهد إلى حد الإجهاد وإذا بنا على رمال الشاطئ ولم يزل أمامنا بحر واسع الأطراف والأبعاد.

عبارة فيها سؤال من فرط الدهش. وفى بستان جثسيمانى نقرأ عبارة كهذه «وابتدأ يدهش». وهنا نسمع نفس النغمة. إن يسوع المسيح فى كل حياته، قد ألف أن يكون متروكاً. فى أول أيام خدمته تركه أهل بيته وقال عنه إخوته ما قالوا، ثم تركه أهل قرية الناصرة. ثم سارت أخيراً جموع الأمة فى ذات الطريق كثيرون ممن تبعوه أينما سار عثروا ورجعوا من ورائه، وأخيراً أسلمه واحد من تلاميذه المقربين، والباقون تركوه وهربوا فى وقت الشدة. ولكنه فى كل هذه كان له مورد دائم الجريان لم يجف ولم ينضب. كان يحز فى نفسه الجحود، لكنه كان يستطيع دائماً إذا ما تخلى عنه الناس أن يحول وجهه نحو الله وفى ثقة يطرح نفسه فى حضنه الرحيب. إن جف ينبوع المحبة بين الناس وضاع المعروف راح ينهل الزلال العذب من مورد المحبة الإلهية وينهل ما شاء، لأنه كان يعلم أن كل ما يعمله أو يتألم به كان

وفق إرادة الله. كانت مشاعره متفقة تماماً مع قلب الله، وأفكار الله هي أفكاره بالتمام. كان في وضوح يميز الإرادة الإلهية ترسم طريقه وتشقه وسط متناقضات حياته إلى غاية عظمى. لذلك استطاع أن يقول بكل هدوء عند العشاء الأخير وهو يعلم كيف سيتركه تلاميذه : «هوذا تأتى ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدى وأنا لست وحدى لأن الآب معى». والآن قد أتت الساعة فعلاً فهل تحقق ما كان يتوقع؟ لقد تفرقوا كما قال لهم وتُرك هو وحده فهل لم يكن وحده بالفعل؟ هل كان الآب معه إن كلماته تحمل إلينا الجواب «**إلهى إلهى لماذا تركتنى**؟».

فى جثسيمانى كان الرب يسوع يجاهد بالصلاة فى كآبة قلب حتى صارت إرادته صورة طبق الأصل من إرادة الآب. إنها لازمة من لازمات الطبيعة البشرية أن تنمو نمواً من مرحلة إلى مرحلة. وكمال ربنا يسوع لأنه كان كمالاً إنسانياً كان لابد له أن يستعلن نفسه في كماله مرحلة بعد مرحلة. كان على الدوام كاملاً فى المرحلة التى وصل إليها صعوداً. ومرة كان الصعود سهلاً وأخرى كان شاقاً. والخطوة التى كان عليه أن يخطوها فى جثسيمانى كانت أشق عليه جداً من كل خطوة سبقت لذلك اجتازها بتعب وعرق ودموع. وانتصر فى جثسيمانى، وبدا كأنه انتصر نهائياً. وبدا كأن الضعف الجسدى والكآبة والاشفاق مما سيجئ لن تعود. لكن بسماح من الله عادت الموجة عاتية بعد انحسار قليل وكانت الهجمة على الصليب أعنف وأطول. والآن دعنا نرسل الطرف فى خشوع لنرى إلى أى مدى يمكننا أن نكشف السر الرهيب.

الآن قد مضى على يسوع المسيح وقت طويل وهو معلق على الصليب

وفى كل دقيقة كان الألم يزداد والجروح التى فى يديه ورجليه وقد مضى عليها كل تلك الساعات الطويلة معرضة للشمس ومكشوفة للجو لاشك ازداد نباحها ووخزها وأقل محاولة لتحريك الجسد من الوضع المؤلم الذى كان فيه كانت تكلف ذهنه وأعصابه ما لايطيق. وكل هذه الآلام الجسدية لاشك نسجت غماماً على مرآة ذهنه.

وأوجاع تلك الآلام كانت ولاشك أعظم بكثير فى وقعها على إحساسه وشعوره إذا قيست عليها آلام وأوجاع الناس الآخرين وذلك بسبب رقة حواشيه ودقة إحساسه. فإن الخطية لم تقرب من جسده فلم يخشوشن بها وكان الموت بالتبعية غريباً عليه، وفيض الحياة الجسدية التى تدفقت غامرة فى هيكل جسده، الآن ينحسر فى جزر متتابع، وها هو يجد نفسه ينسحب من هذا الوجود الحى الذى كان بالنسبة له مملوءاً بحضور الله وصلاحه. لم يكن من أهل الموت لكنه الآن يمسك فى قبضة الموت دون أن يسرع لنجدته ملاك ودون أن يتداخل الله بمعجزة ليرد هذا القضاء. لقد كان متروكاً ليلقى مصيره بنفسه.

لكن من السهل أن ندرك أن هناك ما هو أكثر من مجرد الآلام الجسدية، مما كان سبباً فى انطلاق تلك الصرخة، فإن كنا فى جثسيمانى نرى مجاهدة يسوع المسيح حتى اتحدت واتفقت إرادته تماماً مع إرادة الآب، فنحن هنا نرى مجاهدته الذهنية وسط عجيج متناقضات مشهد الصليب. إنها صرخة نفس تصارعت فى داخلها الأفكار فعبرت عن هذا الصراع بالقول «لماذا؟» والآن قد تركزت فى جلجثة كل متناقضات الدنيا وكل تياراتها المتعارضة المتصارعة لقد رجحت كفة الظلم وديس الحق وأهدرت البراءة

واحتقر الصلاح، وكل شئ تقريباً سار على عكس ما ينبغى أن يكون، وصرخات الملايين التى انطلقت من نفوس مظلومة ملكومة أكلتها الغيرة على مجد الله وسحقتها الحيرة من خط سير العناية الإلهية فقالت «لماذا لماذا؟» - هذه الصرخات جميعاً تركزت الآن فى «لماذا» المنطلقة من أعماق نفس المسيح.

أما السؤال الذى تدخل بنا الإجابة عليه إلى أعماق السر فهو «هل كان ترك المسيح على الصليب معنوياً أو موضوعياً؟» وبعبارة أخرى «هل المسيح نظراً لآلامه المبرحة وتبخر قوته الجسدية على الصليب وتكاثف الظلمة على نفسه، شعر بالترك والوحشة أم أن الله فعلاً حوّل وجهه عنه وتركه؟» بكل تأكيد كان المسيح موضوع لذة الآب تماماً وفى كل حين وبالأولى كثيراً وهو يضحى بنفسه من أجل الآخرين على الصليب، لكن فى نفس الوقت كان هناك جانب آخر من جوانب الطبيعة الإلهية هو جانب الغضب الإلهى ضد الخطية. كان الله يتعامل معه فى تلك اللحظات الرهيبة كأنه الخطية مجسمة، وما تستحقه الخطية من عقاب وسحق قد وقع عليه. فى تلك اللحظات المُرة جداً تقابل الله البار الديان المزمجر مع من يحمل «إثم جميعنا» أو مع بديل وضعت على رأسه كل أنواع الخطايا. تقابل الله مع الفدية التى طوعاً بذلت نفسها عن الخطاة فصب عليها الغضب صباً، وذاقت من يد الله كأساً أشد مرارة من العلقم، لاتوصف ولا يُعبّر عنها بلغة الناس.

وإن كنا الآن قد عرفنا شيئاً من سر تلك الصرخة لكننا نستدرك ونقول أننا ما عرفنا من السر إلا القشور وماكشفنا منه إلا النُذر اليسير، ومازلنا على الشاطئ وأمامنا بحر عجاج بعيد الأغوار والأسرار.

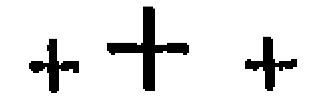
قد يبدو اجتهاداً صناعياً إذا قلنا عن هذه الصرخة أنها ـ فى أية صورة كانت ـ صرخة انتصار. لكن إن كان ما قلناه صحيحاً وحقاً فإن تلك اللحظة التى بلغت فيها المرارة المؤلمة ذروتها هى أيضاً اللحظة التى تحقق فيها أعظم انتصار. ومثل الزهرة إذا عصرت أخرجت رحيقها العبق هكذا السيد يسوع المسيح لما جعل نفسه ذبيحة خطية رفع الخطية وصنع الخلاص أمام خاطئ.

وبالحقيقة يشهد التاريخ أن يسوع المسيح منذ تلك اللحظة قد غزا قلب البشرية وسبى عواطف الناس. ومرة قال عن تلك اللحظة «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلىّ الجميع» والتاريخ برهن صحة هذه النبوة. ومنذ ذلك التاريخ صار يسوع المصلوب قبلة أنظار الناس من كل الأجناس. وقلوب الملايين من كل القبائل والعشائر اجتُذبت إليه. لم تمل النظر إليه ولم تشبع من التأمل فى معانى هذه الصرخة العجيبة الرهيبة. إن الصليب هو قلب التعليم المسيحى. والنفوس المسكينة التى تقترب إليه فى توبة صادقة تجد دائماً فى الصليب ملاذاً وضماناً أبدياً. إنها تقف إلى جانب المصلوب قائلة «هذا ما كان يجب أن يكون عليه مصيرنا. لقد شوه الإثم حياتنا فاستحقت نفوسنا السحق والموت، وبالعدل نطرح إلى الأبد فى هوة النسيان» ولكن إذا هى اعترفت هكذا سرعان ما تُوهب لها حياة أفضل من تلك التى شوهها الإثم وسرعان ما يملأها سلام الله لتبدأ حياة لمجد الله موسومة بالنعمة مطبوعة على الخدمة.

تلك الصرخة العجيبة الرهيبة وإن كانت منطلقة من أعماق الحزن لكنها صرخة مُحملة بأقوى الإيمان. إنه بكلتا قبضتيه يتشبث بالقدير «إلهى.

إلهى» إنها صلاة، وكم مرة لجأ إلى الصلاة فى أوقات الشدة. وإنها لصلاة فيها ترياق ضد اليأس والفشل إنه يسرع إلى ذراعى الله اللتين أحاطتا به وطوقتاه فى حفظ وأمان.

وفى الساعة التاسعة بدأت تنقشع فلول الظلمة التى بسطت ظلها على كل الأرض ومعها انقشعت الغيمة التى غمرت ذهنه وعاد إلى صفائه الهادئ وسنرى أن كلماته الأخيرة التى قالها بعد ذلك كانت، كما تعودنا أن نسمعها منه، صافية هادئة.



الكلمة الخامسة

فى الكلمة الرابعة رأينا الصراع الذى اضطرم فى ذهن المتألم الكريم كما رأينا أيضاً خروجه المظفر من ذلك الصمت الذى دام ثلاث ساعات. يؤيد هذا المنظر ما سجله يوحنا فى إنجيله لما قال «بعد هذا رأى يسوع أن كل شئ قد كمل فلكى يتم الكتاب قال **أنا عطشان**».

واضح أن عبارة «فلكى يتم الكتاب» مرتبطة بعبارة «أنا عطشان» بمعنى أن السيد المسيح قال «أنا عطشان» تتميماً لنبوة وردت فى الكتاب. وليس فى العهد القديم نبوة صريحة كهذه ولكن توجد به إشارة إلى جرعة الخل التى قُدمت له فى عطشه «وفى عطشى يسقوننى خلاًّ» (مز ٦٩:٢١) وعلى هذا يكون الارتباط قوياً بين عبارة «فلكى يتم الكتاب» وعبارة «أنا عطشان» وما اتصل بها من بقية الكلام «وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاً فملأوا اسفنجة من الخل ووضعوها على زوفا وقدموها إلى فمه» وهكذا تمت النبوة القديمة.

إن الإنسان ينسى أعوازه الجسدية وسط المشغوليات الذهنية العنيفة. فالحاجة إلى النوم أو إلى الطعام تغيب أو تنوب فى وسط الانحصار الذهنى عند قراءة كتاب عميق الفكرة أو شيق الأسلوب فإذا ما انفك هذا الحصار يشعر المرء بما بذل من جهد وما حلّ به من تعب. والرب يسوع فى وقت التجربة فى البرية كان محصوراً فى جهاد روحى كبير فلما إنفك الحصار

بعد أربعين نهاراً وأربعين ليلة «جاع أخيراً».

والآن بعد انحصار يعج ويموج بالآلام المُرة القاسية شعر يسوع المسيح بالعطش ـ العطش الشديد الجارف الذى غطت شدته على سائر الآلام فقال وهو على شفا النهاية «**أنا عطشان**».

«**أنا عطشان**» كانت هذه الصرخة الوحيدة التى انطلقت من الرب يسوع على الصليب معبرة عن آلامه الجسدية. وكما أشرنا سابقاً كان أمراً مألوفاً أن يجزع المحكوم عليهم بالصلب وأن يستعطفوا وأن يتوسلوا بصراخ ودموع وأحياناً كانوا يهدرون تذمراً وينفرون من الصلب فى شراسة، أما يسوع المسيح فلم يلفظ كلمة واحدة تنم عن الشكوى إلى هذه اللحظة وحتى بعد هذه اللحظة فى وسط الآلام الشديدة كان ضابطاً لنفسه ـ كان محصوراً بالاهتمام بالآخرين أو بالصلاة لله.

إنه مثال رائع للصبر. إنه يخجلنا جداً نحن الذين بسهولة نتذرع بالمعاذير التافهة لنبرر بها تذمرنا وتضيقنا . إن صداعاً طفيفاً أو زكاماً خفيفاً يجعلنا أحياناً نكاد نفجّر ثورة فى محيط البيت. غير أن كثيرين ينتصرون بنبل على آلامهم وتجاربهم وفى هذا هم يتبعون مثال المخلص المتألم.

لكن هناك شيئاً آخر فى هذه الصرخة غير الصبر. إنه لم يكن ضابطاً لنفسه عن تزمت أو كبرياء، لأن الناس أحياناً يحملون وخزات الألم فى صمت حتى لايشمت بهم الأعداء، ويسوع المسيح كان محوطاً بأعداء أساءوا إليه كثيراً وفرحوا كثيراً فى بليته وكان ممكناً له أن يكتم مشاعره أو على الأقل لايسألهم خدمة أو معروفاً.

لكن يسوع المسيح لم يسألهم فقط معروفاً بل أيضاً توقع منهم هذا المعروف. كان يتوقع أن يجد بعض الشفقة فى قرارة قلوبهم. ويسوع المسيح فى كل حياته كان يريد أن يكتشف شيئاً حسناً فى الأردياء على خلاف ما يحكم به الناس. إن من مبادئ العالم أن يساء الظن بالآخرين إلى أن يثبت العكس خصوصاً من جهة الأعداء. إننا دائماً ننسب أحط الصفات إلى أولئك الذين يختلفون فى الرأى معنا ونرفض أن نسمع عنهم كلمة طيبة. لكن لم تكن هذه طريق يسوع المسيح. لقد توقع أن يجد قطرات من الإنسانية فى قلوب العسكر الرومان القاسية.

لايمكننا أن نسمع هذه الصرخة المؤلمة المعبرة عن نفاد القوة، دون أن نتذكر كلمات قالها الرب يسوع وتتباين مع هذه الصرخة تبايناً شديداً.

هل يمكن أن يكون هذا هو الذى وقف مرة فى أورشليم فى وسط جمع حاشد يقول «إن عطش أحد فليقبل إلى ويشرب»؟

أهذا هو الذى وقف على بئر يعقوب مع السامرية يقول لها «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية»؟

أيمكن أن يكون أن يكون ذاك الذى بمثل هذه الكلمات كان على استعداد لأن يطفئ عطش العالم، هو نفسه الذى بهمسة ضعيفة مستهلكة يقول «**أنا عطشان**»؟

نعم هو هو نفسه. وهذا التباين ملحوظ فى كل أدوار حياته. تباين بين

الغنى الداخلي والفقر الظاهرى. كان قادراً على أن يُغنى الكثيرين ومع ذلك كان يُخدَم من أموال نساء فضليات تبعنه. قال مرة «أنا هو خبز الحياة» ولكنه أحياناً «جاع». لقد وعد المؤمنين به «عروشاً» و«منازل كثيرة» ولكنه عن نفسه يقول «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار أما ابن الإنسان فليس له أين يُسند رأسه».

وحرى بنا في زمن مادى مثل هذا الزمان الذى نعيشه حيث الناس لايعرفون من الموازين والمقاييس إلا موازين ومقاييس المال، ولا همّ لهم إلا ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون - حرى بنا في هذا الزمن أن نحفظ هذا التباين في قلوبنا. إن الذين تمثلت فيهم خزائن العالم بثروة الفكر وزودوا الإنسانية بنور المعرفة غالباً ما كانوا من المعوزين، العاجزين عن الحصول على الخبز الكفاف.

ولسنا نقصد بقولنا هذا أنه ينبغى أن نكون فقراء في الظاهر إن كنا نريد أن نكون أغنياء في الداخل. كلا. إن الفقراء ليسوا جميعاً أغنياء روحياً وبكل أسف نقول إن جماهير منهم عضهم الفقر فعض فيهم الخلق وعطل فيهم الحس. بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن القاعدة العامة هى أن من يتمتعون بقسط من الغنى الداخلى لهم على الأقل حظ من خيرات هذه الحياة. لأن رجاحة العقل ومتانة الخلق لهما قيمة في سوق العطاء والأخذ بين الناس. والمال أيضاً قد يخدم أنبل وأكرم غايات الحياة. أما الذى نريد أن نقوله فهو أن الغنى الداخلى هو الغنى الحقيقى وينبغى أن نسعى إليه ونحصل عليه حتى ولو ضحينا بالغنى الظاهرى. وما من أحد يكون أهلاً لخدمة المعرفة أو الدين إن لم يكن عنده الاستعداد لمثل هذه

التضحية إذا عرضت له. إننا نضع أقدامنا فى آثار خطوات المسيح إن كانت لنا الإرادة والقدرة على أن ننشر من داخلنا إشعاعاً طيباً يُنعش ويجمّل حياة الآخرين ويرفع من معنوياتهم.

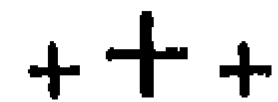
يبدو أن بعضاً ممن كانوا حول الصليب عارضوا فى أن تُجاب طلبة يسوع المسيح إذ فهموا خطأ العبارة الرابعة التى نطق بها «إيلى إيلى لِما شبقتنى». لقد ظنوا أنه ينادى إيليا وأرادوا أن لايسعفوه ولا حتى بجرعة ماء ليروا هل يأتى إيليا ويخلصه. لكن كان دافع الإنسانية عند واحد من العسكر قوياً فجرى وملأ أسفنجة خلاً وجعلها على قصبة وسقاه.

لكن المخلص لم يزل يقول «**أنا عطشان**» ... كيف وأين؟ اسمعوه يقول «عطشت فسقيتمونى» فيُسأل «يارب متى رأيناك ... عطشاناً فسقيناك؟» فيقول «بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم» فحيث يكون إخوة وأخوات ليسوع المسيح منفردين أو منفردات على فراش المرض، محتاجين أو محتاجات إلى زيارة تؤنس وحشتهم أو إلى يد المعونة تخفف آلامهم أو تحمل الكأس إلى شفاههم اليابسة فهناك يسوع المسيح بهمساتهم الضعيفة المستهلكة يقول «**أنا عطشان**».

ربما يذهب قوله عبثاً. فإن كثيرين من المسيحيين - على مدار السنة بأكملها - لايفكرون فى زيارة مريض أو فقير. ويشق عليهم أن يطرقوا حارة مظلمة أو يدخلوا كوخاً به واحداً من أولاد الله المرضى أو المعوزين. كثيرون من المسيحيين لايعرفون فن تجميل البيوت المظلمة الصامتة بزهرة بسيطة فيها معنى الرجاء والأمل الناضر أو بترنيمة فيها رنة الفرح وسط متاعب الحياة أو بوجبة من طعام تنعش الساغب أو بلمسة عطوفة أو بابتسامة

لطيفة. إن مسيحية الكثيرين سرعان ما تتغير لو أنهم تعلموا أن يؤدوا هذه الخدمات البسيطة، خدمات من شأنها أن تضع الحقيقة فى مسيحيتهم، خدمات لن يضيع أجرها لأنه فى يد الرب مضمون.

لكن هذا ليس بكاف. هل يريد أحد أن يقترب أكثر ويمسك بالكأس لا ليرفعها إلى شفتى واحد من خاصة المسيح بل إلى شفتيه هو نفسه؟ حسناً. هذا ممكن أيضاً. إن يسوع المسيح لم يزل يقول «أنا عطشان» عطشان إلى المحبة، عطشان إلى الصلاة، عطشان إلى الخدمة، عطشان إلى القداسة. وفى هذا ـ فى القلب المُحب المكرس الخَدوم الطاهر ـ فى مثل هذا القلب يرى الرب من تعب نفسه ويشبع.



الكلمة السادسة

هى فى اللغة اليونانية كلمة مفردة «**أكمل**» وفى اللغة العربية أضيف إليها حرف التحقيق فجاءت « **قد أكمل**» ـ ولطالما قيل أنها أعظم كلمة مأثورة فى كل تاريخ العالم. وألوف النفوس البشرية تعلقت بها وسط غصص التبكيت أو مرارة الاحتضار كما يتعلق غريق بطوق النجاة.

فُسرت هذه الكلمة عند البعض كما لو كانت هى آخر علامة لحياة تنوى. كما لو كان معناها «انتهى» أى انتهى كل هذا العناء الطويل وجاءت نهاية هذه الآلام !! لكن كلمات الرب يسوع لم يُنطق بها فى مثل هذه النغمة. إن الكلمة الخامسة قيلت «بصوت عظيم» وكذلك الكلمة السابعة كما سنرى، وإن كانت الكلمة السادسة لم يذكر عنها صراحة أنه قيلت هكذا لكنها على الأرجح كانت هكذا كسابقتها ولاحقتها. إنها لم تكن أنّة ضعف وخوار بل صرخة غلبة وانتصار.

لقد كان عمل الرب يسوع وألمه يكملان معاً فى وقت واحد، وطبيعى أن نفترض أن الرب يسوع كان يشير إلى كليهما. والألم والعمل هما الجانبان المتلازمان لكل حياة. ومرة يطغى الواحد وأخرى ينحسر. وفى اختبارات الرب يسوع كان كلاهما فى مد مستمر. حياته كلها كانت مستغرقة بالألم والعمل. كان أمامه عمل كثير وعظيم ليكمله وفى طريق إكماله تألم كثيراً. والآن بلغ كلاهما الغاية المظفرة. وهذا هو ما تعبر عنه الكلمة السادسة. إذن

هى أولاً صرخة العامل وقد أكمل العمل، وهى ثانياً صرخة المتألم وقد جاوز الألم.

لما كان المسيح على الأرض كان أمامه عمل كثير وعظيم ليعمله وها هو الآن ينتهى منه. وهذه الكلمة التى قالها فى أخريات حياته تذكرنا بأول عبارة نطق بها فى صباه وحفظها لنا سجل الوحى وهى «ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فى ما لأبى؟» ففى الثانية عشرة من عمره علم أن هناك عملاً استؤمن عليه من قبل أبيه السماوى وفى هذا العمل تركزت كل جهوده وانحصرت كل أفكاره. كان منذ صباه يعرف الكتب، أسفار العهد القديم وقد رأى فى تلك الأسفار العمل الذى تعين عليه أن يعمله مرموزاً إليه برموز وتشبيهات، بطقوس وفرائض، بالناموس والأنبياء ...الخ. إنه كان يرى فيها برنامج حياته مصوراً وملخصاً قبل أن يكون، ولاشك أنه كان فى ذهنه وفى فكره وهو يقول «**قد أكمل**» أن كل ما سبق أن قيل عنه فى الناموس والأنبياء قد أكمل وتحقق.

كان منذ بداية خدمته الجهارية يشعر بالعمل الذى أمامه. كان يقول «لى صبغة اصطبغ بها وكيف انحصر حتى تكمل» وعند بئر سوخار بعد حديثه مع السامرية لما قدم له تلاميذه طعاماً ليأكل رفض الطعام وقال لهم «لى طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم ... طعامى أن أفعل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله». وفى آخر رحلة له إلى أورشليم كان يتقدم تلاميذه وهم يندهشون ويخافون. لقد تملكه تماماً الغرض الذى من أجله جاء إلى هذا العالم. لقد استولى عليه نفساً وروحاً وجسداً. استغرق وقته ـ كل دقيقة منه ـ وفى نهاية مطافه وهو يلقى نظرة على تلك الحياة القصيرة المليئة وجد أن

جميع وزناته اشتغلت وربحت. كلها عُبئت واستُخدمت فى سبيل الغرض الواحد الذى كان أمامه فجاء العمل مكملاً ومكللاً.

ماذا كان ذلك العمل؟ بماذا نصفه ونعبر عنه؟ على أى حال هو أعظم وأجل عمل عالجه إنسان ما. كثيرون أفنوا أنفسهم فى سبيل مشروعاتهم وأخلصوا لأعمالهم لدرجة كبيرة. منهم غزاة طوتهم جهودهم فى إخضاع الشعوب، ومنهم أبطال كرّسوا كل شئ لتحرير أوطانهم، ومنهم فلاسفة قضوا كل حياتهم لكى يضيفوا إلى رقعة المعرفة مساحة جديدة. وعلماء نقّبوا عن أسرار الطبيعة، ومكتشفون كابدوا صنوف العناء فى سبيل أن يضعوا أقدامهم على أرض جديدة - لكن ولا واحد منهم اضطلع بمهمة يمكن أن تقارن بتلك التى شغلت قلب يسوع المسيح.

كان عمله لأجل الله من نحو الناس، ولأجل الناس من نحو الله.

ما أكثر ما تكلم الرب يسوع عن هذا العمل كعمل الله الذى قبله من الله ولأجل الله. مرة قال «الأعمال التى أعطانى الآب لأكملها» و «ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى مادام نهار» و «الذى أرسلنى هو معى ولم يتركنى الآب وحدى لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه» وفى آخر حياته قال وهو يرفع عينيه نحو السماء مخاطباً الآب «أنا مجدتك على الأرض العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته» هذا كان عمله أن يمجد الله على الأرض. أن يعلن الله الآب للناس.

كذلك واضح أن عمله كان لأجل الناس. كان يقتاد الناس رجوعاً إلى الله. وكان يزحزح دائماً العقبات التى زحمت طريقهم. لقد رفع الحجر من على القبر الذى احتوى جثث الكثيرين وبصوت عظيم ناداهم ليخرجوا

خارجاً. كان عليه أن يحطم مصاريع أبواب الشر والذنوب والآثام ويهدم أسوار معاقلها ليطلق أسراها فى الحرية وفعلاً حطّم وهدم، ولما قال «**قد أكمل**» كان فى نفس الوقت يقول للبشرية «ها قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً».

وكلما كان العمل عظيماً وشاقاً كلما كان الرضى عظيماً وكاملاً بإتمامه. كم تشيع فى النفس شعوراً بالرضى والشبع كلمة «انتهى» فى ختام سفر جليل !! وكم تنتشى آذان بطل التحرير إذا سمعت فى ختام حياة طويلة شاقة هتافات الذين تحرروا تكلل جهوده وكفاحه !! إنه شبع الانتصار ونشوته. شبع ونشوة أحس بهما يسوع المسيح وهو يقول «**قد أكمل**».

ولئن كان أمام السيد المسيح فى حياته عمل جليل وعظيم استطاع وهو على الصليب أن يقول عنه «**قد أكمل**» فهو أيضاً كان على الصليب يختم حياة تميزت بصنوف من الآلام والأوجاع.

إن الألم هو الجانب المقابل للعمل. إنه ظل الكد والكفاح. إنه يتمثل فى المقاومة التى يلقاها العامل فيما يعالج من عمل.

وحياة المسيح كانت بصفة غير اعتيادية مشبعة بالآلام. لأنه تعين عليه أن يعمل فى جو شديد المقاومة. كان قصده صالحاً وكان حبه لخير العالم ملحوظاً فى كل ما قال وما فعل حتى إننا كنا نتوقع أن يقابل بكل تشجيع وتسنيد. وكان روحياً غيوراً على الحق حتى إننا كنا نتوقع أن كل القوى الروحية الدينية تعضد دعوته وتدفعها. لكنه فى كل خطوة قوبل بالمقاومة العنيدة. وجندت ضده كل المؤثرات. هُوجم فى عنف وصُودر بقسوة حتى

بلغت المصادرة ذروتها فى الصليب عندما تكاتفت ضده قوات الأرض والجحيم لتسحقه وتحرمه الوجود، ونجحت ظاهرياً.

غير أننا نعرّف الألم تعريفاً ناقصاً إذا قلنا أنه يتمثل فى المقاومة التى يلقاها العامل فيما يعالج من عمل، إذ بينما العمل هو ما يفعله الإنسان بقوة إرادته نرى الألم هو رد الفعل ضد إرادته. وقد يصدر رد الفعل هذا عن إرادة أعدائه ومقاوميه. على أن هذا ليس الكل فإن فوق هذه الإرادة التى كلها شر توجد إرادة أخرى صالحة وتقصد الصلاح لنا من وراء آلامنا ـ إرادة تسيطر على الظروف، خلاقة تخرج من الجافى حلاوة، عالية لها الريح والبحر ولها الليل أيضاً والنهار.

قد يكون الألم بحسب إرادة الله وعندئذ يكون أداة قوية الفعل فى تشكيل خلائقه وفق إرادته. وإن كنا بالعمل نحن نريد أن نخرج من العالم شيئاً وفق إرادة الله فإنه بالألم يريد الله أن يجعل منا نحن شيئاً كما يريدنا أن نكون. إنه يُسيج بالألم على جانبى طريقنا لكى نُحفظ فى الطريق الذى عينه لنا. إنه يحد من رغبتنا ومطامعنا. إنه يُخضعنا ويجعل منا ودعاء لطفاء. بالعمل نحن نسهم بعض الشئ فى إختطاف البعض من المصير المظلم الذى ينتظر هذا العالم ولكن بالألم يجعل الله منا رجالاً أقدس سيرة وأكمل سيراً. وهذا فى عينيه أعظم النصر.

وربما كان هذا هو نصف الحياة الأصعب. إن العمل الذى تعين علينا أن نعمله فى هذه الحياة بالجهد نستطيع أن ننجزه كاملاً والأصعب من هذا أن نحمل الألم بصبر وأن نستفيد منه.

إن حياة المسيح كانت تكتنفها المقاومات والهجمات من كل ناحية. أناس

أشرار قاموا ضده المقاومة والهجوم. لكنه عرف أن من ورائهم إرادة الله واعترف بها وقبلها. لقد ارتضى حياة العار بدلاً من الإجلال والإكرام. وارتضى حياة مقتضبة محدودة النشاط بدلاً من عمر فسيح يعم فيه الخير وينساب البر إلى أبعد الحدود. وقبل موتاً مُعجلاً عنيفاً بدلاً من ملكوت عريض أبدى. لكنه لم يتذمر من مرارة التضحية. لقد قبل الكلفة لأنها إرادة أبيه. عندما تراكمت الغيمة فوق الغيمة وتلبد الأفق بسواد كثيف حتى قال «إن شئت أن تجيز عنى هذه الكأس» سرعان ما نراه يردف هذه العبارة بالقول «ولكن لتكن لا إرادتى بل إرادتك» وهكذا اجتاز الظلمات وكانت أفكاره متفقة مع فكر أبيه، وإرادته مطابقة تماماً لإرادته.

وأخيراً وُضعت الكأس المرة بين يديه على الصليب. وكانت أشد مرارة من كل ما تألم به من ذى قبل. لكنه لم يستعف منها بل تناولها. وبشربها كملت حلقات كماله. ولما أفرغ الكأس على شفتيه صرخ قائلاً « **قد أكمل** » ورجَّعت السماء أصداء الصرخة وعلى مر الزمان ردد المفديون الصدى فى قولهم :

قــــد وفـى ديـنـى	كـلـه الـحـــمـل
حـيـنـمـا مـات لـذا	قـال قـد كـمـل

لقد كُمِّل يسوع المسيح بالآلام. وفى عمله الكفارى على الصليب الذى به توج حياته الكاملة، تمم إرادة الله أبيه، وإذ قد كُملت آلامه وكَمل عمله أصبح للعالم شئ جديد لم يكن فيه على الإطلاق، لاسمه المعبود كل إكرام وإجلال.

+ + +

الكلمة السابعة

الكلمات الأخيرة التى تقال فى ساعة الاحتضار لها اعتبار خاص لكن آخر هذه الكلمات تحظى باعتبار أخص. وهانحن نتأمل الآن آخر عبارة نطق بها الرب يسوع من فوق الصليب من أجل ذلك ولأسباب أخرى سنوليها اهتماماً خاصاً.

قيل عن رجل انجليزى مشهور أنه وهو على فراش موته استدعى ابن أخيه وقال له «تعال اقترب وانظر كيف يموت مسيحى مؤمن» والواقع أن يتعلم المرء كيف يموت لهو من أعظم الدروس التى تلزم لمن كُتب عليهم الموت. وإن شئنا أن نتعلم هذا الدرس فلنتعلمه من دراسة كيف مات المسيح. والكلمة الأخيرة «**يا أبتاه فى يديك أستودع روحى**» (لو ٢٣:٤٦) تعلمنا كيف يكون موت المؤمن بل وأكثر من ذلك كيف تكون حياته.

كانت آخر كلمات المسيح صلاة. وليست كل كلماته التى نطق بها من فوق الصليب صلوات رُفعت إلى الله أبيه. فواحدة منها وُجهت إلى لص تائب، وأخرى إلى أمه والتلميذ الذى كان يحبه، وثالثة قيلت للعسكر الذين صلبوه. لكن لغته فى جميعها كانت لغة الصلاة. وليس عن طريق الصدفة أن تكون آخر هذه العبارات صلاة لأن كل ينابيعه وخواطره كانت تتجه نحو الله.

وبينما الصلاة تناسب كل وقت وكل ظرف إلا أن هناك أوقاتاً وظروفاً

تكون الصلاة هي الأنسب لها بل ليس غيرها مناسباً. عند المساء وقبل أن نستسلم للنوم الذى هو صورة صغيرة للموت تكون الصلاة عادة أنسب ما تتهيأ له أفكارنا. وفى لحظات الخطر كما لو داهم الموت جمعاً على ظهر باخرة لا نلبث أن نرى القوم ساجدين على ركبهم مدفوعين إلى الصلاة بشعور خفى وحول مائدة الرب بينما يمر الخبز والكأس فى سكون ينحصر العبّاد فى الصلاة. لكن على فراش الموت تكون الصلاة فى أنسب أوقاتها وأنسب ظروفها. فى تلك الآونة نودع كرهاً لا طوعاً كل ما هو أرضى - نودع الأهل والأصدقاء والمال والأعمال وما يربطنا بالبيت أو بالحقل. ومن الطبيعى أن نمسك بالشئ الوحيد الذى يمكننا أن نمسك به وأن نفعل ذلك بالصلاة لأنها هى التى تمسك بالله.

نعم من الطبيعى أن نصلى حينذاك حتى أن الصلاة تعتبر بلا جدال عنصراً من عناصر آخر مشهد من مشاهد هذه الحياة. لكن هل هذا القول يطلق هكذا عموماً؟ كلا. إن نهاية حياة بدون الله هى أرهب وأردأ مناظر الحياة جميعاً. فى هذه الحالة قد تكون ينابيع الذهن ومجارى الخواطر كلها متجهة إلى الأرض فى عنف وتدفق يصعب معهما تحويلها وجهة أخرى بل فى هذه الحالة قد يكون أقل فكر عن الله شبحاً مرعباً يدفعه المائت عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. أما الذين تعودوا حياة الصلاة فيكون طبيعياً أن يصلوا آخر الأمر. ولقد كانت الصلاة عند يسوع المسيح هى لغة حياته. لقد صلى كل حين - على الجبل منفرداً، وفى السهل بين الجموع. ولقد كان اتجاهه إلى الله فى آخر لحظة هو الاتجاه الطبيعى الذى انطلقت إليه حياته كلها.

إذن لو أردنا أن تكون خاتمتنا صلاة فلنبدأ فى الحال. إن أردنا وجه الله يشرق على فراش موتنا فلنتعرف به الآن ونسلم. إن طلبنا أن نموت موت الأبرار فلنبدأ حياة البر ولنمارس مبادئها الحلوة الجميلة.

كانت آخر عبارة نطق بها المخلص اقتباساً من المكتوب، وليست هذه أول مرة فيها يقتبس الرب عبارات من المكتوب وهو معلق على الصليب. كانت صرخته «إلهى إلهى لماذا تركتنى» مأخوذة من العهد القديم. وفى قوله «أنا عطشان» إشارة إلى عبارة أخرى سبقت، تنبئ عن عطشه. وكما أن الصلاة من الأمور الطبيعية على شفاه المحتضرين، كذلك عبارات الكتاب المقدس. أحياناً وفى بعض المناسبات نجد أن بعض اللغات لها صلاحية خاصة للتعبير عن فن معين من فنون الثقافة أو المعرفة. فاليونانية مثلاً هى لغة الفنون والعلوم. والفرنسية هى لغة الدبلوماسية. والانجليزية هى لغة التجارة. ولكن فى أقدس لحظات الحياة وفى أقدس حادثاتها لانجد ما يضارع لغة الكتاب المقدس خصوصاً فى مشهد الموت. قد تكتب على لوحات القبور التذكارية بعض الأقوال المأثورة ولكن أنسب ما يكتب عادة عبارة من الكتاب المقدس. وهكذا على فراش الموت ليس أنسب من كلمات الكتاب توافق تماماً الشفاه التى يرنو عليها ظل الموت.

من سفر المزامير اقتبس الرب يسوع عبارته الأخيرة (من المزمور الحادى والثلاثين) كما اقتبس عبارة «إلهى إلهى لماذا تركتنى» من نفس السفر (من المزمور الثانى والعشرين) وسفر المزامير من أثمن أسفار العهد القديم. إنه سفر كتب بمداد من دم كتّابه. فيه سجلت أعمق أحزان وتدريبات البشرية وهو أكمل تعبير أبرزت فيه الاختبارات، وجميع القديسين يتخذون منه مرجعاً

كما لو كان سجل مذكراتهم الخصوصية. والرب يسوع كان عارفاً بالكتب. تعلمها وسمعها فى البيت لما كان طفلاً واستمع إليها فى الهيكل لما كان صبياً ورجلاً. وإربما كان يقضى الساعات فى الهيكل يفتش الأسفار وينقب فيها. لأجل ذلك كان يعرف أى العبارات يختار فى جميع المناسبات. كان يعظ بها وكان يحاجج بقوة أولئك المحترفين التدين والمحتكرين التعليم. وفى حياته الخاصة كان يلهج فيها. بها حارب العدو فى البرية وغلب. والآن فى ساعة الموت كانت هى عدته العظمى.

ومن المهم أن نلاحظ الأسلوب الذى وضع فيه الرب هذه العبارة الأخيرة المقتبسة من أقوال صاحب المزامير. إنه أضاف فى أولها شيئاً وحذف من آخرها شيئاً. إنها فى المزمور ترد هكذا «فى يديك أستودع روحى. فديتنى يارب ...» والرب يسوع زاد عليها فى أولها كلمة «يا أبتاه» وهذه الكلمة لم يكن ممكناً أن تكتب فى المزمور لأن الفرد فى العهد القديم لم يكن يعرف بعد أن يخاطب الله كالآب رغم أن الله كان يدعى أباً للأمة كلها (إش ١٦:٦٣). لكن الرب يسوع لما أضاف هذه الكلمة إلى العبارة المقتبسة أعطاها لوناً جديداً. ونحن نستطيع أن نفعل ذلك - نستطيع أن نخلع معانى العهد الجديد على عبارات العهد القديم - واستفانوس أول شهيد فى المسيحية قد شابه سيده عندما طلب الغفران لقاتليه واستودع روحه فى يدى سيده.

كذلك لم يكن مناسباً أن يتمم العبارة المقتبسة ويقول «فديتنى يارب ...» أما نحن فيليق بنا أن نقول هكذا. بل إننا نتذوق فى عبارة كهذه طعماً أشهى وأحلى مما تذوقه المرنم الذى نطق بها لأول مرة.

هذه العبارة الأخيرة أعلنت فكر السيد الرب عن الموت. إنه إذ يقول «فى يديك أستودع روحى» إنما يعنى أنه يودع الله وديعة على رجاء استرجاعها مرة أخرى. إنها نفس الكلمة التى عبر بها بولس الرسول فيما بعد حين قال «قادر أن يحفظ وديعتى» فإلى زمان معين تستقر روحه أمانة فى حمى يدى الآب المحب القويتين حتى تسترد سالمة آمنة. وما الموت؟ إن هو إلا انفصال الروح عن الجسد. تلك تستقر عند الله وهذا يترك بين يدى الناس. لكن يسوع المسيح كان ينظر إلى يوم آخر فيه يتصل ما انفصل من جديد وتعود الحياة الشخصية مستكملة فى جسد مجيد.

وأضخم سؤال يمكن أن يسأله شخص يزحف إلى الأبدية هو هذا «إن مات إنسان أفيحيا؟» هل الإنسان يموت؟ وهل يموت إلى الأبد؟

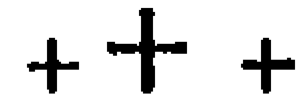
إن فى أعماق قلب الإنسان ما يرفض الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب. قد يتخبط بعض المعلمين فى غياهب الجهالة فيزعمون أن الإنسان بالموت يتحلل ويضيع ضمن العالم المادى، وبعضهم يميزون بين العقل والمادة فيزعمون أن الروح ترجع إلى محيط الوجود اللانهائى وتضيع فيه كما تضيع قطرة ماء فى البحر الواسع الأطراف ويعود الجسد إلى التراب ولن يتلاقيا. لكن فى داخلنا شئ يتسامى فوق هذه الأباطيل ويأبى الموافقة عليها. إن سيد المعلمين علمنا أن لنا شيئاً أفضل يبقى لنا ونبقى له. إننا إلى المسيح سنذهب ومع الرب سنكون. لقد تكلم عن هذا المستقبل فى وضوح. وكلماته الأخيرة برهنت على أنه واثق مما كان يعلمه للآخرين. إنه ليس فقط أضاء الحياة والخلود بكلامه بل أيضاً هو نفسه حياتنا الأبدية. لأننا مرتبطون ومتحدون معه، لذلك لن نهلك. بل ولا حتى الموت يفصلنا عن محبته. ولأنه هو

حى فنحن أيضاً سنحيا. ليتنا ندرب ألسنتنا فى مدة هذه الحياة على النطق بالقول «أيها الرب يسوع فى يديك أستودع روحى».

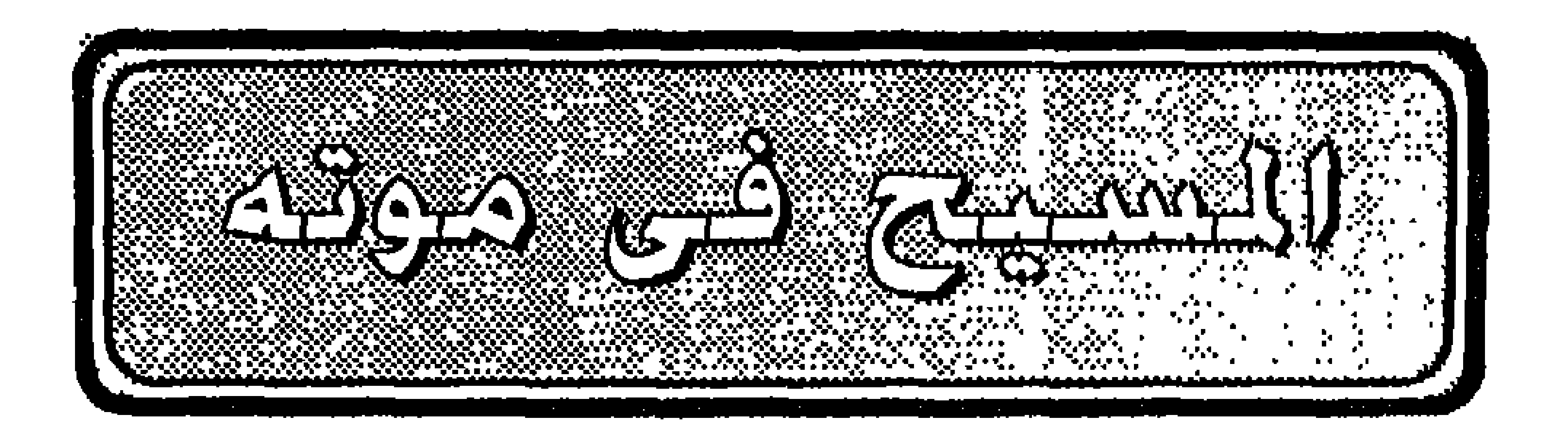
تلك الخاتمة المجيدة التى انتهى بها مجئ المسيح الأول - ألا وهى ارتفاعه إلى السماء.

وبطرس الذى كان شاهد عيان لصعود الرب، كما كان أحد التلاميذ الثلاثة المحظوظين الذين كانوا مع الرب يسوع على جبل التجلى وهناك رأى ابن الإنسان آتياً فى ملكوته (قارن مت ١٦:٢٨ مع ٢بط ١:١٦) قد أعلن بيقين الفرح والابتهاج ارتفاع الرب وسلطانه السماوى أولاً فى خطابه لليهود ثم بعد ذلك فى رسائله «يسوع المسيح الذى هو فى يمين الله إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مخضعة له» (١بط ٣:٢٢) «الذى أقامه من الأموات وأعطاه مجداً» (١بط ١:٢١). أما سفر الرؤيا فمن أوله لآخره شهادة لربنا الصاعد المرتفع.

فيسوع المسيح هو الوسيط الحقيقى الكامل بين الله والناس لأنه ابن الإنسان الذى نزل من السماء وصعد إلى السماء والآن جالس عن يمين الله. فهو الذى ندعو باسمه والذى نعبده كالرب وهو الذى إذ رفعه الآب أعطاه اسماً فوق كل اسم وقد دفع إليه كل سلطان فى السماء وعلى الأرض. ومن السماء سيأتى سريعاً ليأخذ قديسيه مغيراً شكل جسد تواضعهم ليكونوا على صورة جسد مجده.



الفصل العاشر



المسيح فى موته

لم تجر العادة عند الرومان على إنزال الأجساد من على الصليب بمجرد الموت بل كانت تُترك معلقة ومعرضة للجو حتى يدب فيها الفساد وتتساقط نثاراً أو تمزقها الطيور أو تأكلها الوحوش، وأحياناً كانت تُضرم النار فى خشبة الصليب ليتطهر المكان من آثار المصلوب. أما اليهود فكانوا أكثر حرصاً لأنه مكتوب فى ناموسهم «إذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم. لأن المعلق ملعون من الله فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك نصيباً» (تث ٢١:٢٢). ولسنا نقطع باليقين أن اليهود كانوا يحرصون دائماً على تنفيذ المكتوب فيما يتعلق بجميع الأحكام التى ينفذها سادتهم الرومان على أرضهم ولكنه أمر طبيعى أن يحرصوا على تنفيذ المكتوب حرفياً فى ربوع المدينة المقدسة وخاصة فى وقت الفصح. وهناك سبب آخر وهو أن اليوم التالى ليوم صلب المسيح كان يوماً عظيماً. كان سبتاً كبيراً هو سبت الفصح. كان عيداً مزدوجاً، لاينبغى تنجيسه بأى شئ نجس مثل ميت مكشوف للأعين. كانت عند اليهود حساسية كبيرة ضد أمثال هذه الأمور. كانوا يستشعرون النجاسة إذا مسوا جسد ميت ولابد لهم من عملية تطهيرية طويلة قبل أن يستعيدوا شعورهم بالطهارة ولكن فى مناسبة سبت الفصح كانت ترتفع درجة حساسيتهم فيستشعرون النجاسة لمجرد وقوع

بصرهم على ميت أو حتى لمجرد بقاء الميت مكشوفاً على أرض مدينتهم. لذلك ذهب وفد منهم إلى الحاكم الرومانى وسألوه أن يعجل موت المصلوبين بكسر سيقانهم حتى ترفع أجسادهم وتدفن قبل السبت.

ولقد كان تكسير سيقان المصلوبين من أقسى العقوبات التى أجرى الرومان توقيعها ولم تكن تلك العقوبة بأقل فظاعة وبشاعة من عقوبة الصلب ذاتها، وهى عقوبة مستقلة عن عقوبة الصلب. إلا أن اليهود أرادوا أن يربطوا بين العقوبتين حتى يكون موت يسوع المسيح أشد هولاً. على أن البشير يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الدافع لهذا الالتماس هو حفظ سبت الفصح من التنجيس. وإن كانت عداوتهم هى التى اقترحت كسر السيقان لتعجيل الموت إلا أن ما توجسوه خيفة من تنجيس الفصح هو السبب الأصلى. وفى هذا مثال غير عادى لخداع الشيطان الذى يمكن للضمير الإنسانى أن يمارسه. ها نحن أولا نرى قوماً قد انتهوا على التو من أعظم وأقذر جريمة يمكن أن تُرتكب، وها هى أكفهم يلطخها دم برئ، وإذا بضمائرهم التى لم تستشعر ندماً ولا تأنيباً تحرص على حفظ السبت وتخشى نجاسة طقسية تصيب الأرض. إنه مثال فريد قلما نجد له نظيراً فى سجلات التاريخ. لما نسميه التدين الإسمى وكيف يمكن أن يخلو التعصب الدينى من روح الدين تماماً. إنه مثال فيه تحذير خطير ضد المظهر الدينى الأجوف حيث لاتفترق المظاهر الدينية بنبضات قلب سليم من نحو الله. مثال يحذرنا قائلاً إن كنا لا نحب الأخ القريب الذى نراه فكيف نحب الله الذى لانراه.

أصغى بيلاطس لطلبة اليهود وأصدر الأوامر لإجابة ملتمسهم، واندفعت

القوة الغاشمة لتنفيذ المطلوب فكسروا ساقى اللص الأول ثم كسروا ساقى اللص التائب. إن هذا الأخير لم يفلت، لكن توبته كانت شيئاً عظيماً له فى تلك اللحظة. كان كسر ساقى زميله عقوبة جديدة وأما بالنسبة له فكان كسر ساقيه تحطيماً للقيد حتى تنطلق روحه إلى الفردوس الذى وعده به يسوع المسيح.

ثم جاء الدور على يسوع المسيح وإذا بالعسكر يجدون الموت قد سبقهم إليه. كان رأسه المنكس دليلاً لايحتاج إلى تأكيد على موته ولكن واحداً من العسكر أرسل حربة إلى جنبه فتحت فيه ثغرة، حتى أن الرب يسوع بعد قيامته دعا توما الذى خامره الشك لأن يضع يده فى هذه الثغرة. ولما سحب العسكرى الحربة خرج فى إثرها دم وماء. ويوحنا الذى كان واقفاً يشهد عياناً كل هذا يبدو أنه علق أهمية خاصة على هذا المشهد غير العادى فيقول وهو يسرد تاريخ هذه اللحظة مقرراً ومؤكداً أن «الذى عاين شهد وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» فلماذا يقطع يوحنا حديثه ليقول عبارة مثل هذه ويضفي عليها كل هذا التأكيد؟ قال البعض أن يوحنا كان مدفوعاً إلى كتابة هذه العبارة رداً على هرطقة شاعت فى أيام المسيحية الأولى مؤداها أن المسيح لم يكن بشراً بالمعنى الحقيقى بل كان ناسوته مجرد شبح لجسد إنسانى ولذلك فموته كان موتاً ظاهرياً. ولكى ينقض يوحنا هذا الهرطقة أتى على ذكر تفصيلات مادية محسوسة ومنظورة تبرهن أن المسيح كان إنساناً تام الإنسانية وأنه مات موتاً حقيقياً، ولقد ذوت هذه الهرطقة واضمحلت أركانها ولم تعد نسمعها اليوم ولكن كثيرين فى هذه الأيام يتكلمون عن المسيح بالتبجيل والتكريم ويرفعون من قدره معلماً ومنذراً

ومبشراً وصاحب رسالة، لكننا ينبغى أن لا تضللنا الألفاظ وعلينا أن نسألهم : أى مسيح تقصدون؟ هل تقصدون مسيح الكتاب المقدس الذى «كان فى البدء عند الله» والذى «صار جسداً وحلّ بيننا» والذى «مات من أجل خطية العالم» والذى «قام من الأموات» والذى «سيملك إلى أبد الآبدين»؟ نعم إن المسيح الذى تحدثت عنه الأسفار المقدسة هو الذى جاء إلينا بالخلاص الذى تحدثت عنه هذه الأسفار عينها.

ولاشك أنه قد أثار دهشة يوحنا أنه رأى نبوتين من نبوات العهد القديم تتحققان فى تلك اللحظة. يبدو ظاهرياً كأنه عن طريق الصدفة وحدها أن العسكر لم يروا ضرورة ـ على خلاف ما اشتهى اليهود ـ لأن يكسروا ساقى يسوع المسيح. لكن كلمة نبوية مقدسة لايعلمونها كتبت من زمان قديم قالت «عظمٌ لايكسر منه» كذلك كأنه من قبيل الصدفة أن يطعن عسكرى جنب المسيح ليتأكد موته، لكن عبارة لايعلمها كُتبت من زمان قديم قالت «سينظرون إلى الذى طعنوه». وهكذا تحت إشراف العناية الإلهية كان العسكر فى جهلهم بما كانوا يفعلون، يتممون الكتب، ولكن العارفين بالكتب يلمحون أصبع العلى تشير إلى يسوع المسيح كالمرسل من الله.

«عظمٌ لايكسر منه» معلوم بصفة عامة أن هذه العبارة يشار بها إلى ما جاء فى سفر الخروج عن خروف الفصح. فخروف الفصح كان يؤكل كله «وعظماً لاتكسروا منه». ويوحنا أراد أن يشير إلى المسيح كفصح التدبير الجديد، والعناية الإلهية هى التى حفظت وجه الشبه بين الرمز والمرموز إليه فلم تسمح بكسر عظم منه.

لقد كان الفصح أعظم مناسبة على مدار السنة عند اليهود على مدى

تاريخهم. كانوا يذكرون فى الفصح مشاهد عجيبة تنوعت فيها نعمة الله واستعرضت فيها قوته القادرة وبها ابتدأ تاريخهم كأمة، عندما أنقذتهم ذراع الله من عبودية كانوا فيها وعندما أخرجتهم من مصر بيد رفيعة. وكان لب الاحتفال وأهم وأجل ما فيه هو ذبح خروف الفصح والأكل منه. كانوا يذكرون كيف أن دم الحمل المرشوش على قوائم أبوابهم وعتباتها العليا، خلصهم من ضربة الملاك المهلك الذى اجتاز فى كل أرض مصر. وفى نفس الوقت كان لحم الخروف يؤكل مشوياً، يأكلونه جميعاً بأحقاء ممنطقة وعصى فى أيديهم ليتزودوا بالقوة للسير فى رحلتهم الخطيرة. وعلى مدى الأجيال كان الفصح فى كل سنة يضع أمامهم هذين الأمرين أولهما أن الدينونة قد عبرت عنهم على أساس الدم، وثانيهما أنهم يحتاجون إلى قوة جديدة ينبغى أن يحصلوا عليها حتى يواصلوا فترة جديدة من تاريخهم تبدأ من غد الفصح.

وعلى هذا القياس فى العهد الجديد تتجه أبصارنا وأفكارنا ـ فى كل مرة نذكر فيها موت المسيح ـ إلى نعمة الله وقوته المخلصة، اللتين بهما بدأت المسيحية وإعلاناتها المجيدة. ولب الإعلانات وجوهرها، حمل الله المذبوح الذى قدمه الله كفارة لخطايانا والذى فيه قوتنا ومنه نستمدها لمواصلة الجهاد فى رحلة الحياة.

والكلمة النبوية الثانية التى رآها يوحنا تتحقق فى المسيح المصلوب هى عبارة «سينظرون إلى الذى طعنوه». عبارة وردت فى سفر زكريا وقد وردت هكذا «وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات فينظرون إلىَّ الذى طعنوه وينوحون عليه كنائحٍ على وحيد له ويكونون فى

مـرارة عليـه كمن هو فى مـرارة على بكره» (زك ١٢: ١٠) وهـا الحـربة قـد أشرعت وأرسلت فعلاً إلى جنبه بلا حياء ولا تـأنيب وقطعاً كان يوحنا يشير إلى هذه الفعلة، كأنها صـادرة من الشعب أكثر مما هى صـادرة من جندى رومانى. لكن النبوة تشير ليس فقط إلى جرم اقترفوه فى حق الله بل أيضاً إلى حـزنهم على جـحـودهم. وهـذا الجـزء من النبـوة تحـقق جـزئيـاً فى يوم الخمسين وعلى مـر الدهور وجد أفراد وجماعات من جنس اليهود، عصـرهم الحزن على ما فعلوا بهذا العود الرطب واستغفروا الله واستسمحوه بالدمع الغزير. أما كمال تحقيق النبوة فلم يزل مستقبلاً عندما ترجـع الأمة كـأمة بقلبها لربها وتعترف لسيدها ومسيحها، ولكن متى حصل هذا فلابد على أية حال أن يبدأ رجوعهم بهذا اللون من الندم العميق.

وبكل تأكيد كل من يتحـرك ضـميره بعمل الروح القدس ويرى ببصـيرته طرفاً من نعمة الله فيما بذل وفيمـا احتمله المسيح لأجله فـلابد له أن يفعل هكذا أيضاً. لابد أن يقر بنفس الإقرار ويستذنب نفسه بالدموع. إن القساوة التى غـرست الحـربة فـى جنب المسـيح لم تكن قـسـاوة قلوب فـئـة من شـعب جـحود فقط ولم تكن قسـاوة قلوب فئة قليلة من الجنود فقط إنمـا هـى قسـاوة قلوب الناس أجمـعين. إنه من أجل خطية العالم قد سـمر على خشبة وسفك دمـه الكريم. وكل خـاطئ له يد فـى صلب ابن الله. فلننظر إلى خطايانا وكم هى بشـعة حتى أنهـا استلزمت صلب ابن الله واسـتحقت كل هـذا القصـاص الرهيب.

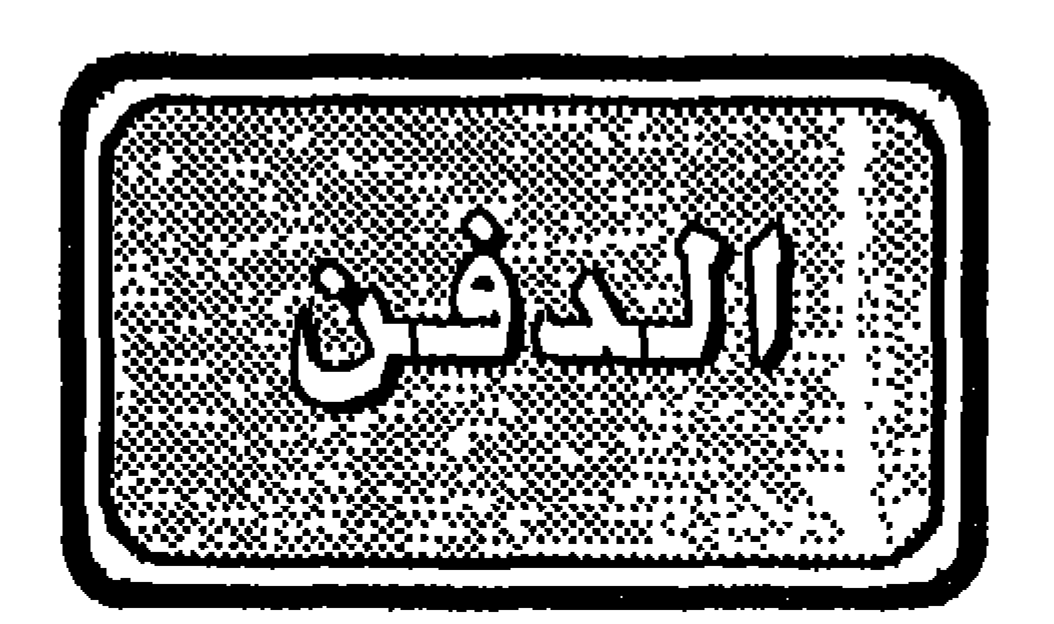
لقد فـاض الجنب المطعون بدم ومـاء فيـهمـا نرى كفـاية ذبيـحتـه المكفرة وكفايتها المطهرة. وما الصـخرة التى ضربت فى البرية فتفجر منها ماء حياة

للعطاش سوى رمز لصخر الدهور الذى إذ ضرب على الصليب تفجرت منه ينابيع الفداء والغفران والحياة لجنس أثيم هالك.

حقاً إننا أمام مشهد عجيب ملئ بالأسرار وما أقل ما نستوعب من معانيه العميقة ولقد سمينا هذا المشهد «المسيح فى موته» ولكن من منا لايرى أن موت المسيح ملئ بالأسرار ونابض بالحياة؟ أليس هو المسيح الحى أيضاً؟ إنه حى. إنه هنا الآن، وفى كل مكان. يرانا ويسمعنا، يلازمنا ويسير معنا. ومع ذلك صحيح أيضاً أن المسيح الحى المعبود الغالى نحبه ونجله ونسجد له لأنه كان ميتاً. إن حقيقة أنه حى تبعث القوة دافقة فينا وتنشر الرجاء حياً أمامنا، كما أن ذكرى موته تزيح الحمل عن ضمائرنا المثقلة وتضرم الحب فى قلوبنا المحبة.



الفصل الحادى عشر



الدفن

هناك فلسفة رخيصة لاتقيم وزناً لما يحدث للجسد بعد أن تفارقه الروح ومن شأنها عدم الاهتمام به. لكن الغريزة فى ضمير الإنسانية أحكم وأعقل.

فى أيام قديمة كان يعتبر المصير تعساً والخاتمة قائمة لو أن إنساناً لقى حتفه دون الدفن بكرامة. ورغم أن هذا الإحساس كانت تخالطه الغلواء والأوهام إلا أن من خلفه غريزة سليمة الشعور صادقة الحس. إن للجسد كرامة تماماً إذا ما كان هيكلاً للروح القدس، وإن للموت جلالاً يخسره الأحياء إن هم تجاهلوه. وأن الإنسان ليتألم إذا ما رأى موكب جنازة عليه طابع الهرج والعجلة ويعوزه الوقار.

وعلى العكس يشعر الإنسان بالرضا إذا ما رأى الموكب يخطو فى خشوع والشعور بجلال الموت يرهف إحساس الحضور. فإذا ما سقط عظيم صنع البر والخير فى أمته، حُملت بقاياه وسط الدموع وناح عليه جميع عارفيه.

هكذا ينبغى أن يدفن العظماء والعقلاء والمحسنون، فكيف دفن إذن من أجمع الكل على أنه سيد العظماء وأحكم العقلاء وأجود المحسنين؟

رفعت الأجساد الثلاثة قبيل الغروب. قبل بدء السبت اليهودى ـ والسبت يبدأ مع الغروب ـ ولسنا نعرف أين دفن اللصان، ربما فى نفس المكان أو فى

خندق مظلم يضم رفات أمثالهما من المجرمين. ولولا أن يداً كريمة غير متوقعة امتدت بترتيب الله تطلب جسد يسوع المسيح لكان مصيره كمصيرهما، وكانت للرومان عادة طيبة هى أن يعطوا أجساد المصلوبين لأصدقائهم وأحبائهم إذا هم طلبوها، ولقد تقدم طالب لجسد يسوع ولم يكن بيلاطس خسيساً للدرجة التى معها يرفض هذا الطلب.

وهذه أول مرة يظهر فيها يوسف الذى من الرامة، ولانعرف عن ماضيه إلا القدر اليسير، حتى «الرامة» نفسها التى ينسب إليها لايعرف موقعها بالضبط. وحقيقة كونه يمتلك بستاناً به قبر فى خارج أورشليم لاتعنى بالضرورة أنه من سكانها لأن أتقياء اليهود كانت لهم الرغبة القوية فى أن يدفنوا فى ضواحى المدينة المقدسة، ولم تزل إلى اليوم تحوطها المدافن من جميع النواحى.

كان يوسف غنياً، ولربما لأجل هذا السبب نجح مسعاه لدى بيلاطس، وأولئك الذين حباهم الله شيئاً من الجاه أو المكانة أو خصهم بمواهب متميزة يمكنهم أن يخدموا المسيح بطرق يعجز عنها باقى المؤمنين. إنما لكى يستخدم الرب هذه العطايا والمزايا ينبغى أولاً أن تحسب عند أصحابها خسارة ونفاية لأجل المسيح.

كان يوسف مشيراً، وقيل أن مجلس المشورة الذى كان يوسف عضواً فيه هو مجلس الرامة، لكن العبارة التى بها أشار الإنجيل إلى أنه «لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم» تجعلنا نرجح أنه كان عضواً فى مجلس السنهدريم، ومما لاشك فيه أنه تعمد التخلف عن جلسة المحاكمة لأنه كان يعلم مقدماً أن إجراءات المحاكمة ستجرح شعوره وضميره لأنه كان «رجلاً صالحاً باراً».

عن هذا الرجل نقرأ شيئاً آخر كان «هو أيضاً ينتظر ملكوت الله» وبهذا الوصف وُصِف أتقـيـاء آخـرون في فلسطين في تلك الأيام. وصف يميـز بصورة واضحة تقواهم، كان ذلك الجيل ميتاً روحياً وكانت الديانة تتمثل في الطقوس الفريسية الناشفة من جهة وفي فلسفة الشكوك الصدوقية من جهة أخرى، ففي المجمع كان الشعب يطلب خبزاً فيُعطَى له حجر. وبدلاً من أن يفيض نهر كلمة الله بالحق الصافي ليروى الأرض الناشفة كان الكتبة يزحمـون مجراه برمال تفسيراتهم العادمة الحياة والروح. ومع ذلك وُجِد أتقياء حتى في أشر الأيام. كانوا أتقياء صادقي التقوى، مبعثرين على مرتفعات ومنخفضات فلسطين، كانوا كأنوار لامعة هنا وهناك على رقعة فسيحة يكتنفها الظلام.

وكانوا يشعرون بأنهم غرباء ونزلاء في جيلهم وفي ذات أرضهم وعاشوا عمرهم في ذكريات الماضي وعلى أمل المستقبل، اغتذوا بكلمات أنبيائهم الذين كلموهم عن زمان طيب فيه يشرق نور على الجالسين في الظلمة، هذا كان انتظارهم ورجاءهم. كانوا يرهفون السمع لعلهم يسمعون صوت النبوة تتردد أصداؤه مرة أخرى في الأرض ليوقظ الشعب من سباته الروحي. إنهم انتظاراً انتظروا هذا الوقت حتى إذا ما ازداد الأمل في قلوبهم ولمع الرجاء في خواطرهم ترقبوا مجئ مسيّا في أيامهم.

هكذا كانت حال النفوس التي انصتت إلى المعمدان وإلى يسوع. جميعهم رحبوا بصـوت يوحنا وبصوت الناصري كما يرحبون - على الأقل - بكلام نبيين يعالجان شرور جيلهم. على أن بعضهم شكّوا في ما إذا كان يسوع هو الآتي، أم أن عليهم أن ينتظروا آخر. وكان يوسف الرامي أحد هؤلاء.

كـان ـ كما قيل عنه ـ تلميذاً ليسوع ولكن سراً بسبب الخوف من اليهود. كـان له إيمـان، ولكن إيمانه لم يكن بالقـدر الذى يجـعله يعـتـرف بالمسـيح ويتـحمـل النتـائج. وحتى فـى وقت المحـاكمـة أرضـى ضـمـيـره بأن تغيب عن جلسة السنهدريم بدلاً من أن يقف فى مكانه ويجاهر برأيه.

إلى ذلك الحد كان هذا هو وصف يوسف ولكن الآن وفى مواجهة الخطر نراه يلصق نفسه بيسوع. ولعل ظلم رؤساء الكهنة وبغيهم، وقد جاوز المدى حتى ساندت الوحشية ظلمهم وبغيهم ـ جعله لم يطق صبراً فخرج عن صمته يعلن احتجاجه ويعلن إيمانه. نعم ربما على هذا النحو من التفكير حصل فى مشاعره التغيير. لقد رضى المأزق الحرج إذ تحدى بهذا الشكل جماعة السنهدريم ونفض الخوف عن نفسه إذ لم يبق فى قوس الصبر منزع. وتقدم إلى بيلاطس يطلب جسد يسوع.

كانت لهذه الشـجـاعـة التى أظهرها يوسف أثران على الأقل. إنهـا من الجهة الواحدة حقرت من شأن الأعداء ومن الجهة الأخرى شجعت الأيدى المسترخية.

لم نقرأ أن يوسف أوجد نفسه فى ورطة بسبب تصرفه هذا. ولم نقرأ أن السنهدريم اجتمع لينظر فى أمره أو ليقرر اضطهاده. كانوا بلاشك فى حالة غليان وكـانوا تسـعة وستين عضـواً. لكن رجلاً واحداً شـجاعـاً ربما يخجل ويعارض بقوة الحق أضعاف هذا العدد. لقد كانت ضمائرهم سقيمة ومثقلة ولم يقدروا أن يحاجّوا رجلاً فاضلاً يعرفون فضله وتقواه فآثروا الصمت. حقاً أن من كان أميناً سليم القلب يستطيع أن يشهد لمسيحه بقوة ويضمن انحناء ضمائر أعدائه أمام إرادته واحترامهم للحق الذى ينتطق به.

ثم القلوب التى فيها فتيلة مدخنة لابد تسرى فيها الحرارة والغيرة. وواضح أن شجاعة يوسف هى التى ألهبت قلب نيقوديموس واضرمت فيه عاطفة الولاء.

كان نيقوديموس من نفس طبقة يوسف إذ كان عضواً فى السنهدريم وكان تلميذاً ليسوع، ولكن خفية، وليست هذه أول مرة فيها يذكر نيقوديموس على صفحات الإنجيل، إنه فى بداية خدمة الرب يسوع ذهب إليه فى مقابلة خصوصية، وتسجيل هذه المقابلة على صفحات الإنجيل جعل عشرات الألوف ليس فقط مؤمنين بالمسيح بل أقام منهم أيضاً شهوداً مشهورين. وكان ينبغى أن يكون لتلك المقابلة تأثير كبير على الرجل الذى وجهاً لوجه جلس يستمع إلى تعليم الرب له. كان ينبغى أن يكون نيقوديموس واحداً من الرواد الأوائل الذين تبعوا يسوع المسيح، بل أن مركزه كان لابد وأن يعزز جماعة الرسل، لكنه تباطأ وظل تلميذاً فى الخفاء.

فى مناسبة واحدة فقط رأيناه يخرج عن صمته ويحتج عندما سمع الافتراءات تلصق بالرب يسوع فى مجلس السنهدريم وقال «ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟» ولكنه إزاء إجابتهم الخشنة لما قالوا له «ألعلك أنت أيضاً من الجليل؟» سكت ولم يفتح فاه. وبدون شك هو تعمد أن يغيب عن السنهدريم فى جلسة المحاكمة مثل يوسف. لكن لما استشرى الظلم كان مستعداً أن يحتج عليه خصوصاً لما رأى يوسف يسانده فى هذا. وينبغى علينا أن نمتدح نيقوديموس فى هذا الموقف. لقد تباطأت خطواته إلى حين والآن يتقدم ويده فى يد رفيقه وصديقه يوسف وتشابكت اليدان فى لحظة مقدسة من لحظات حياتهما والتفّتا حول

جسد فاديها.

ولاتوجد محبة أو صداقة أو شركة أصدق ولا أقوى ولا أعمق مما يربط مؤمناً بمؤمن متحدين معاً في المسيح.

وعلى لوحات فنية باقية سجل الفنانون مناظر يسبى جمالها القلوب وجميعها تحكى لنا قصة نزول الجسد من على الصليب وتكفينه ودفنه. وفى هذاه المناظر جميعها يبرز يوسف الرامى ونيقوديموس مع باقى أحباء الرب أمثال يوحنا والمريمات والدمع يكاد يقطر من عيونهن أو تكاد تنطق الرقة الحانية فى لمسات أيديهن.

وفى قبر جديد كان يملكه يوسف وقد نحته فى الصخر لنفسه حتى إذا طواه الموت يرقد فى ظل مدينة الله - وفى ذلك القبر وضع جسد الرب يسوع. قبر لم يدفن فيه أحد من قبل. وكانت هذه هدية كريمة لرجل يموت مصلوباً ولكنها كانت الهدية اللائقة بذاك الذى لم يعرف خطية والذى وإن مات لم يكن ليرى فساداً. نعم لاق به أن يدفن فى قبر لم يتنجس بميت كما لاق به أيضاً ذلك الثوب الجديد من كتان الذى اشتراه يوسف لأجل تكفينه. ونيقوديموس لم يكن متخلفاً عن زميله لا فى العاطفة ولا فى التضحية فقد أحضر مزيجاً من «مر وعود نحو مئة مناً» وقد يستكثر القارئ هذا القدر من الطيب ولكن جرت العادة فى تلك الأيام على مثل هذا السخاء فى مثل هذه المناسبات حتى أنه قيل أن الأطياب التى حنط بها جسد هيرودس الكبير نقلت على أكتاف خمسمائة رجل.

كان القبر فى بستان قريب من مكان الصلب ولكننا لسنا نظن أن المكانين قريبان من بعضهما للدرجة التى يصورها التقليد فى يومنا الحاضر

لأن كنيسة القبر المقدس فى أورشليم تضم بين مرافقها القبر ونقره فى صخره العالى يقولون إن الصليب وقع فيها، وبين المكانين مسافة لاتزيد على الثلاثين ياردة.

ونحن إن كنا لانهتم كثيراً بما يمارسه الناس من الحج إلى تلك البقعة من الأرض، وإن كنا لانقدس مكاناً دون غيره، إلا أن قبراً مثل هذا - إن عرف مكانه الحقيقى لاشك يلاقى انعطافاً طبيعياً فى القلوب المؤمنة. ولازالت لقبور الأعزاء الأحياء جاذبية تفرض علينا التأمل وتملأنا بالخشوع.

وإذا نحن عقدنا المقارنة لوجدنا أن موكب جنازة الرب يسوع بين مواكب عظماء الدهر كان بسيطاً جداً خلا من مظاهر الكلفة، إلا أن العواطف التى أحاطت به كانت غنية فى حبها رائعة فى الولاء وصادقة فى الوفاء.

وفى فراش من طيب عبق ومن حوله ينتشر عطر الخمائل والورود ملفوفاً بكتان جديد ومنديل يخفى وخزات الأشواك على الجبين وبينه وبين العالم حجر كبير رقد رب القيامة والحياة. وكان مساء السبت يلوح، وسبت حياته بدأ بالفعل. لقد أكمل العمل. فلا اضطهاد المغرضين ولا كراهية الموتورين. كان هناك حيث «يكف المنافقون عن الشغب وهناك يستريح المتعبون».



المحتـــــوى

إن آلام المسيح الحقيقية لم تكن هي

التي حاقت بجسده. إنها آلام نفسه

في الداخل... بل حتى هذا كله لم

يكن كل شئ. لقد ملأ قلب الفادي

حزن يجل عن الوصف وتعجز لغة

البشر عن تبيانه. إنه كان يموت من

أجل خطية العالم. إنه حمل في

نفسه مذنوبية الجنس البشري.

هذا هو سر المشهد. بل هو أيضاً مجده.

لقد غُرسَ صليب المسيح على رابية

الجلجثة. خشبة جامدة خشنة

ولكن هوذا هي قد أفرخت مثل عصا

هارون. لقد ضربت جذورها عميقاً

في قلب البشرية. وأطلقت فروعها

حتى ملأت العالم. ومن كل أمة

وجد أناس في الصليب ظلاً وثمراً.

